(العَينُ مكروهٌ يحدثُ)

وقالَ رمضانُ : كنتُ معَ شيخٍ أَهْوازيٍّ في جَعْفَرِيّةٍ[1]. وكنتُ في الذَّنَبِ، وكانَ في الصدرِ. فلمَّا جاءَ وقتُ الغَداءِ، أخرجَ منْ سَلَّةٍ له دَجاجةً، وفَرْخًا واحدًا مُبَرَّدًا. وأقبلَ يأكلُ ويتحدَّثُ، ولا يَعْرِضُ عليَّ. وليسَ في السفينةِ غيري وغيرُه! فرآني أنظرُ إليه مرّةً ، وإلَى ما بينَ يديهِ مَرَّةً . فتوهَّم أنّي أشْتَهِيهِ واستبطئهُ. فقالَ لي : لِمَ تُحَدِّقُ النظرَ؟ منْ كانَ عندُه ، أكَلَ مِثلِي ، ومنْ لم يكنْ عندَه ، نَظَرَ مثلَكَ!.

قالَ : ثُم نظرَ إليَّ وأنَا أَنظرُ إليهِ ، فقالَ : يا هَناه، أنَا رجلٌ حَسَنُ الأكلِ ، لا آكلُ إلاَّ طيِّبَ الطعامِ . وأنَا أخافُ أنْ تكونَ عينُك مالحةً[2]، وعينُ مِثلكِ سريعةً[3] . فاصرِفْ عنِّي وجهَكَ.

قالَ : فوثبتُ عليهِ، فقبضْتُ علَى لحيتهِ بِيدِي اليسرَى، ثُم تناولتُ الدجاجةَ بيدِي اليمنَى. فمَا زلتُ أضرِبُ بها رأسَه ، حتَّى تقطعتْ في يدِي!

ثم تحوَّلَ إلى مكانِي فمسحَ وجهَه ولحيتَه. ثُم أقبلَ عليَّ فقالَ : قدْ أخبرتُك أنَّ عينَك مالحةٌ، وأنكَ ستصيبُنِي بعينِ! قلتُ : وما شَبَهُ هذَا مِنَ العينِ؟ قال إنَّما العينُ مكرُوهٌ يحدثُ. فقدْ أنزلَتْ بنَا عينُك أعظمَ المكروهِ!

فضحِكْتُ ضَحِكًا ما ضحِكتُ مثلَه. وتكالمنَا حتَّى كأنَّه لم يقلْ قبيحًا، وحتَّى كأنِّي لم أَفْرُطْ عليهِ .

(معَ أحَادِيث الأصْمَعِيّ)

هذه مُلْتَقَطاتُ أحاديثِ أصحابِنا وأحادِيثنا، وما رأينَا بعيونِنا. فأمَّا أحاديثُ الأَصْمَعيِّ وأبي عُبَيْدَةَ وأبي الحسنِ، فإنِّي لم أجدْ مِنهَا ما يصلحُ لهذَا الموضعِ، إلاَّ ما قدْ كتبتُه في هذا الكتابِ، وهي بِضْعَةَ عَشَرَ حديثًا .

(هل نطحتكَ أُمُّهُ؟)

قالُوا : كانَ للمُغِيرَة بنِ عبد اللهِ بنِ أبِي عَقِيلٍ الثَّقَفِيِّ ، وهوُ على الكوفةِ، جَدْيٌ يُوضع على مائدتِه بعدَ الطعامِ . ولم يكنْ أحدٌ يَمَسُّه، إذْ كانَ هُو لا يمسُّه! فأقدَمَ عليه أعرابيٌّ يومًا، ولم يعرفْ سِيرةَ أصحابِنا فيه، فلم يرضَ بأكلِ لحمه، حتَّى تعرَّق عظمَه. فقالَ له المغيرةُ : يا هذا! تطالبُ عِظامَ هذا الجديِّ بذَحْل[4]؟ هل نطحَتْك أمُّه[5]؟

---

(١) جعفرية : سفينة , والجعفر : النهر .

(٢) مالحة : المقصود هنا شريرة لها تأثير سيئ .

(٣) سريعة : أى سريعة التأثير الضار .

(٤) الذحل : الثأر والحقد .

(٥) انظر عيون الأخبار [٣/ ٢٨٣] .

وكانَ الأَصْمَعيُّ يقولُ : إنَّما قالَ : يا هذَا ! تطالبُ عظامَ هذَا البائسِ بذَحْلٍ؟ هل نطحْتك أمُّه ؟.

قالَ : وكانَ على شُرْطَتِه عبدُ الرحمن بنُ طارقٍ ، فقالَ لرجلٍ من الشُّرَط: إنْ أقدمتَ على جَدْيِ الأميرِ أسقطتُ عنكَ نَوْبةَ سَنَةٍ. فبلغَه ذلك، فشكاهُ إلى الحَجَّاجِ ، فعزلَه، وولَّى مكانَه زيادَ بنَ جُدَيد. فكانَ أثقلَ علَيه منْ عبدِ الرحمن. ولم يقدرْ عَلَى عزلِهِ، إذْ كانَ مِنْ قِبَلِ الحَجَّاجِ. فكانَ المُغيرةُ إذا خطَب قالَ : يأهلَ الكوفةِ! مَنْ بغاكُم الغوائل[1]، وسعَى بكم إلَى أميرِكم، فلعنهُ اللهُ، ولعنَ أمَّه العوراءَ! وكانتْ أمُّ زِيادٍ عوراءَ. فكانَ الناسُ يقولونَ: ما رأينَا تعريضًا قطُّ أطيبَ مِنْ تعريضِه!.

قالُوا : وكانَ لزيادٍ الحارثي[2] جَدْي لا يمسُّه ، ولا يمسُّه أحدٌ ! فعشَّى في شهرِ رمضانَ قومًا فيهم أَشْعَبُ . فعَرَضَ أشعبُ للجَدْيِ مِنْ بينِهم. فقالَ زيادٌ : أمَا لأَهْلِ السجْنِ إمامٌ يصلِّي بهم؟ قالُوا: لاَ . قالَ : فَلْيُصَلِّ بهم أشعبُ. فقالَ أشعبُ : أو غيرُ هذا - أصلَحَ اللهُ الأَميرَ - قالَ : وما هُو؟ قالَ : أحْلِفُ بالمُحْرِجاتِ[3] ألاَّ آكُلَ لحمَ جَدْي أبدًا[4] !.

(ألفُ درهَمٍ خيرٌ لكَ)

قالُوا : دَعا عبدُ الملكِ بنُ قَيْسٍ الذِّئبيَّ رجلًا منْ أشرافِ أهلِ البَصْرةِ. وكانَ عبدُ الملكِ بخيلًا علَى الطعامِ، جَوادًا بِالدراهمِ. فاستصحَب الرجلُ ساكنًا. فلمَّا رآه عبدُ الملكِ ضاقَ بهِ ذَرْعًا. فأقبلَ عليه فقالَ له : ألفُ دِرْهم خيرٌ لكَ من احتباسِكَ علينا! واحتملَ غُرْمَ ألفِ درهمٍ، ولم يحتمل أكلَ رغيفٍ!.

(طمعُ الأَعرابيّ)

وتناولَ أعرابيٌّ منْ بينِ يَدَيْ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ دَجاجةً ، فقالَ له : يكفيكَ ما بينَ يديكَ وما يليكَ . قالَ الأعرابيُّ : ومنَها شيءٌ حِميَ؟ قالَ : فخذها ، لا بُورِكَ لكَ فيها!

معاويةُ وصعصعةُ

قالَ : وكانَ مُعاويةُ تُعجبهُ القِبّةُ[5] . وتغدَّى معه ذات يوم صَعْصَعَةُ بنُ صَوْحانَ[6] ، فتناولَها صعصعةُ منْ بينِ يَدَيْ معاويةَ. قالَ معاويةُ : إنَّكَ لبعيدُ النُّجْعَةِ! قالَ صعصعةُ: مَنْ أجْدَبَ انتجعَ!

---

(١) الغوائل : جمع غائلة , وهى الفساد والشر .

(٢) زِيَاد بن صالح الحارثى : من أمراء الدولة المروانية , وأحد القادة الشجعان . كان والى الكوفة عند قيام العباسيين فى خراسان والعراق . ولما عظم أمرهم خرج برجاله إلى الشام (سنه ١٣٢ هـ) فأقام إلى أن انتظم اللأمر لبنى العباس , فخرج عليهم فى ما وراء النهر . الأعلام [٣/ ٥٤] .

(٣) بالمحرجات : هى الأيمان التى لا مخرج منها .

(٤) انظر عيون الأخبار [٣/ ٢٨٤] .

(٥) القِبّة : الكرش .

(٦) صعصعة بن صوحان العبدى ، كان مسلماً فى عهد الرسول ولم يره . روى عن عثمان وعلى ، وشهد صفين مع على ، وكان خطيباً فصيحاً . مات بالكوفة فى خلافة معاوية الإصابة [٤١٢٥] , وصوحان ، بضم الصاد .

(في بُستانِ هِشَام)

وقالَ : دخلَ هِشامُ بنُ عبد الملكِ حائطًا له ، فيهِ فاكهةٌ وأشجارٌ وثِمارٌ ، ومعهُ أصحابُه. فجعلُوا يأكلونَ ويدعُونَ بالبركةِ! فقالَ هشامٌ : يا غلامُ! اقلعَ هذَا، واغرسْ مكانَه الزيتونَ[1]!

(صوتُ النَّوى)

قالَ : وكانَ المُغِيرةُ بنُ عبدِ الله بنِ أبِي عَقِيلٍ الثَّقَفِيُّ يأكُل تمرًا هُو وأصحابُه. فانطفأَ السِّراجُ. وكانُوا يُلْقُونَ النَّوى في طَسْتٍ. فسمِعَ صوتَ نواتيْنِ، فقالَ : مَنْ هذَا الذي يلعبُ بكَعْبَيْن[2]؟

(كثرةُ العيَالِ)

وقالوا : باعَ حُوَيْطِبُ بنُ عبد العُزَّى[3] دارًا منْ معاويةَ بخمسةٍ وأربعينَ ألفَ دينارٍ. فقيلَ له : أصبحتَ كثيرَ المالِ. قالَ : وما منفعةُ خمسةٍ وأربعين ألفًا مع ستَّةٍ منَ العيال؟

(دِيَة مُسلِم)

وقالُوا : سألَ خالدَ بنَ صَفْوانَ رجلٌ فأعطاهُ دِرْهمًا، فاستقلَّه السائلُ، فقالَ : يا أحمقُ! إنَّ الدِّرهمَ عُشْرُ العشَرةِ، وإنَّ العشَرةَ عُشرُ المائةِ، وإنَّ المائةَ عُشر الألفِ، وإنَّ الألفَ عشرُ العشرةِ الآلافِ. أمَا ترى كيفَ ارتفعَ الدرهمُ إلى دِيَةِ مسلمٍ!

(الصَّلاة والطَّعَام)

قالُوا : كانَ بِلالُ بنُ أبي بُرْدَة قدْ خافَ الجُذَامَ ، وهُو والِي البَصْرةِ. فوصفُوا له الاستنقاعَ[4] في السَّمْنِ. فكانَ إذا فَرَغَ مِنَ الجلوسِ فيه، أمرَ ببيعِهِ. فاجتنبَ الناسُ في تلكَ السنةِ أكلَ السَّمن.

وكانَ يُفَطِّر الناسَ في شهرِ رمضانَ . فكانُوا يجلسونَ حَلَقًا ، وتوضعُ لهم الموائدُ. فإذَا أقامَ المؤذِّنُ ، نهضَ بِلالٌ إلى الصلاةِ، ويَسْتَحِي الآخَرونَ. فإذا قامُوا إلى الصلاةِ، جاء الخبّازونَ فرفعُوا الطعامَ !

(يصلحُ للسِّرَاجِ)

قالَ : واحتقنَ عُمَرُ بنُ يزيدَ الأسَديُّ بحقنةٍ فيها أدهانٌ . فلما حرَّكتْه بطنُه كرِه أنْ يأتيَ الخَلاَء. فتذهبَ تلك الأدهانُ . فكانَ يجلسُ في الطَّسْتِ، ويقولُ : صَفُّوا هذَا ، فإنَّه يصلح للسراج[5]!.

قالَ : وخبَّرنا جارٌ له قالَ : رأيته يتخلَّل منَ الطعامِ بخِلالٍ واحدٍ شهرًا ، كلّما تغدَّى حذفَ من

---

(١) انظر نثر الدر [٣/ ٢٨٤] .
(٢) انظر عيون الأخبار [٣/ ٢٨٤] .
(٣) حويطب بن عبد العزى . أسلم عام الفتح , وكان من المؤلفة قلوبهم . عمر مائه وعشرين سنة . مات فى خلافة معاوية سنة . ٥٤ الإصابة [١٧٧٨] .
(٤) الاستنقاع : استنقع فلان فى النهر : أى مكث فيه يتبرد ، والمستنقع موضع من الغدير يتبرد بمائه .
(٥) انظر نثر الدر [٣/ ٢٧٩] .

رأسه شيئًا ، ثم تخلَّل به، ثم وضعَه في مَجْرَى دواتِه.

وقالُوا : كانَ ذِراعٌ الذرَّاعُ مع خالدِ بنِ صَفْوان. فوضعوا بين يديه دَجَاجة ، وبين يديه شيءٌ من زيتون ، فجعل يلحَظُ الدَّجاجةَ. فقالَ : كأنَّك تَهُمُّ بها! قالَ : ومَنْ يمنعني؟ قال : إذًا أصيرُ أنَا وأنتَ في مالي سواءً[1] !

(كثرةُ طعامِه)

قالَ : ومدَّ يَدَه أبو الأشْهَبِ إلَى شيءٍ بينَ يَدَيْ نُمَيْلَةَ بنِ مُرَّة السَّعْديِّ ، فقال : إذا أفْرِدتَ بشيءٍ فلا تعترضْ لغيرِه .

قالُوا : وماتَ وعليه للدَّقاق وحدَه ثمانونَ ألفَ دِرهم ، لكثرةِ طعامِه!

(كلفْتُ ذَنْبَ العطرَّقَ)

وقالُوا : كانَ الحَكَمُ بنُ أيّوبَ الثَّقَفِيُّ عاملًا للحجَّاجِ علَى البَصْرةِ. واستعملَ علَى العِرْقِ[2] جريرَ بنَ بَيْهَسٍ المازنيَّ، (ولَقَبُ جريرٍ العَطَرَّقُ) . فخرجَ الحَكَمُ يتنزَّهُ، وهو باليمامةِ. فدعَا العَطَرَّقَ إلى غَدائِه . فأكَلَ معه، فتناولَ دُرَّاجةً كانتْ بين يديهِ . فعزلَه، وولَّى مكانه نُوَيْرةَ المازنيَّ. فقالَ نويرةُ، وهو ابنُ عمِّ العَطَرَّقَ:

قدْ كانَ في العِرْق صيدٌ لو قنِعتَ به ... فيه غِنًى لكَ عن دُرَّاجةِ الحَكَم
وفي عَوارِضَ لا تنفكُّ تأكلُها ... لو كَان يَشْفِيكَ لحمُ الجُزْرِ من قَرَم!
وفي وِطابٍ مُمَلاَّةٍ مُثَمَّمَةٍ ... فيها الصَّريحُ الذي يَشْفِي من القَرَم

ولمَّا ولّى مكانَه نُوَيرةَ، بلغه أنَّه ابنُ عمٍّ له فعزلَه . فقال نويرةُ :

أبا يوسفَ لو كنتَ تَعرِفُ طاعِتي ... ونُصْحِي إذًا ما بِغْتَنِي بالمُحَلَّقِ
ولا سَاقَ سَرَّاقُ العُراقةِ صالحٌ ... بَنِيَّ ولا كُلِّفْتُ ذنبَ العَطَرَّقِ

فذهبتْ مثلًا .

(هؤلاءِ الثُّقَلاَءِ)

وتناولَ رجلٌ مِن قُدّامِ أميرٍ كانَ لنَا ، ضَخْمٍ ، بَيْضَةً ، فقالَ : خذهَا فإنَّها بيضةُ العُقْرِ[3] . فلم يزل محجوبًا حتى مات[4] .

وأتَى ضَيْعَةً لهُ يتنزَّه إليها، ومعَهُ خمسةُ رجالٍ من خاصَّتِه، وقدْ حملُوا معهُ طعامَ خَمْسمائةٍ وثقُلَ عليهِ أنْ يأكلُوا معهُ، واشتدَّ جوعُه، فجلسَ علَى مَشَارةِ[5] بَقْلٍ. فأقبلَ ينتزعُ الفُجْلةَ فَيَطْوِي جَزَرتها

(١) انظر نثر الدر [٣/ ٢٧٨] . (٢) العرق : موضع بالبصرة .
(٣) بيضة العُقْر : أول بيضة تبيضها الدجاجة . (٤) انظر عيون الأخبار [٣/ ٢٨٣] . (٥) المشارة : المزرعة .

بِعرْقِها، ثُم يأكُلُها، منْ غيرِ أن تُغْسَلَ، من كَلَبِ الجوعِ، ويقولُ لواحدٍ منهُم كانَ أقربَ الخمسةِ إليهِ مجلسًا: لو قدْ ذهبَ هؤلاءِ الثقلاءُ لقدْ أكلْنا!

(اعتلَّ من اللُّقَم)

قالُوا : وأكلَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بَكْرَةَ[1] على خِوانِ معاويةَ، فرأى لَقَمَ عبدِ الرحمن. فلمَّا كانَ بالعَشيِّ، وراحَ إليه أبو بَكْرَةَ ، قالَ : ما فعل ابنُك التِّلقامةُ[2]؟ قال : اعتلَّ . قال : مثلُه لا يعدَم العلَّة !

(طابق الاسمُ المسمّى)

وأكلَ أعرابيٌّ معَ أبي الأسودِ الدُّؤليِّ ، فرأَى له لَقَمًا مُنْكرًا ، وهالَه ما يصنعُ. قالَ لهُ : ما اسمُك؟ قال : لُقْمانُ . قال : صدقَ أهلُك ، أنتَ لقمانُ !

قالواُ : وكانَ له دُكّانٌ لا يسعَ إلاَّ مقعَده ، وطُبَيْقًا يوضَعُ بينَ يديهِ ، وجعلَه مرتفعًا، ولم يجعلْ له عَتَبًا، كيْ لا يرتقِيَ إليه أحدٌ. قالُوا : فكانَ أعرابيٌّ يتحيَّنُ وقتَه، ويأتيهِ على فرسٍ، فيصيرُ كأنَّه معهُ علَى الدكانِ. فأخذَ دَبَّةً[3] وجعلَ فيها حَصًى، واتَّكأ عليها. فإذا رأَى الأعرابيَّ قدْ أقبلَ، أراه كأنَّه يُحوِّل مُتَّكأَه. فإذَا قعقعتِ الدَّبَّةُ بالحصَى نَفَرَ الفرسُ .

قالُوا : فلمْ يزلْ الأعرابيُّ يُدنيهِ ، ويُقعقِعُ هُو به ، حتَّى نفَر منهُ فصرَعه. فكانَ لا يعودُ بعدَ ذلكَ إليهِ[4] .

(رسالةُ أبي العاصِ بنِ عبدِ الوهَّابِ بنِ عبدِ المجيدِ الثَّقَفيِّ إلى ابن التوأم)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ فإنَّ جلوسَك إلَى الأصمَعيِّ ، وعُجْبَكَ بسهلِ بنِ هارونَ ، واسترجاحَك إسماعيلَ بنَ غَزْوانَ ، وطَعْنَك على مُوَيْسِ بنِ عِمْرَانَ ، وخِلْطَتَكَ بابن مُشَارِك ، واختلافَك إلى ابنِ التَّوْأَم، وإكْثارَكَ منْ ذكرِ المالِ وإصلاحِه، والقيامِ عليهِ واصطناعِه، وإطْنابَك في وصف التَّرويج والتَّسْمير ، وحسنِ التَّعَهُّدِ والتَّوْفير - دليلٌ علَى خَبيءِ سوءٍ ، وشاهدٌ علَى عيبٍ وإدبارٍ ؛ بعد أن كنتَ تستثْقِلُ ذِكرَهُم، وتَسْتَشْنِعُ فِعْلَهُم، وتتعجَّبُ منْ مذهبِهم، وتُسرفُ في ذَمِّهم.

وليسَ يلهَجُ بذكرِ الجَمْعِ[5] ، إلاَّ منْ قدْ عزمَ علَى الجمعِ، ولا يأنَس بالبخلاءِ ، إلاَّ المستوحشُ منَ الأسخياءِ .

---

(١) أبو بحر عبد الرحمن بن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي البصري ، وهو أول مولود ولد في الإسلام بالبصرة ، فأطعم أبوه أهل البصرة جزوراً فكفتهم . تابعي ثقة ، ولاه علىٌ بيت المال ، ثم ولاه ذلك زياد . ولد سنة ١٤ هـ وتوفي سنة ٩٦ هـ [تهذيب التهذيب] .

(٢) التِّلقامة : عظيم اللقم . (٣) دَبَّة : الدَّبَّة : القرعة وقد كانت جوفاء ، والدباء أي القرع .

(٤) انظر نثر الدر [٣/ ٣٩١] ونهاية الأرب [٣/ ٣٠٠ ، ٣٠١] .

(٥) الجمع : المقصود به جمع الأموال .

وفي تحفُّظِك قولَ سهلِ بنِ هارونَ : « في الاستعدادِ في حالِ المُهْلةِ، وفي الأَخْذِ بالثقةِ، وأنَّ أَقْبَح التفريطِ ما جاءَ معَ طولِ المدَّةِ ، وأنَّ الحَزْمَ كلَّ الحزمِ، والصوابَ كلَّ الصوابِ، أنْ يُستَظْهَرَ علَى الحَدَثَانِ[1]، وأن يُجعلَ ما فَضَلَ عنْ قِوامِ الأبدانِ، رِدْءًا دونَ صروف الزمانِ، وأنَّا لا نُنْسب إلَى الحكمةِ ، حتَّى نحُوطَ أصلَ النِّعْمةِ، بأنْ نجعلَ دونَ فضولِهَا جُنَّةً »[2] - شاهدٌ على عُجْبك بمذْهبِه، وبرهانٌ علىَ ميلِكَ إلَى سبيلِهِ .

وفي استحسانِكَ روايةَ الأَصْمَعِيِّ في « أَنَّ أكثرَ أهلِ النارِ النساءُ والفقراءُ، وأنَّ أكثرَ أهل الجنَّة البُلْه و الأغنياءُ، وأنَّ أربابَ الدُّثُور[3]، هُم الذينَ ذهبوا بالأجورِ » - برهانٌ على صحَّةِ حكمنا عليكَ، ودليلٌ على صوابِ رأْينَا فيكَ.

وفي تفضيلك كلامَ ابنِ غَزْوانَ ، حينَ قالَ :

« تنعَّمْتُمْ بالطعامِ الطيِّبِ ، وبالثيابِ الفاخِرَةِ، وبالشرابِ الرقيقِ، وبالغِنَاءِ المطربِ؛ وتنعمَّنَا بعزِّ الثروةِ، وبصوابِ النظرِ في العاقبةِ، وبكثرةِ المالِ، والأَمْنِ منْ سوءِ الحالِ، ومنْ ذُلِّ الرغبةِ إلى الرجالِ[4] ، والعجْزِ عنْ مصلحةِ العِيالِ -

فتلكَ لذَّتُكم، وهذهِ لذَّتُنا. وهذَا رأْينا في التسلُّم من الذمِّ، وذاكَ في التعرُّضِ للحمدِ. وإنَّما ينتفعُ بالحمدِ السليمُ الفارغُ البالِ ، ويُسَرُّ باللَّذاتِ الصحيحُ الصادقُ الحِسِّ. فأمَّا الفقيرُ فمَا أغناهُ عنِ الحمدِ، وأفقرَه إلَى ما بهِ يجدُ طَعْمَ الحمدِ!

والطعامُ الذِي آثرتموهُ يعودُ رَجيعًا، والشرابُ يصيرُ بَوْلًا، والبناءُ يعودُ نِقْضًا. والغِناءُ ريحٌ هابَّةٌ ، ومُسقِطٌ للمُرُوءةِ ، وسَخافةٌ تُفْسِدُ ، ورَنَّةٌ تسيرُ. فلذَّتُكم فيمَا حوَى لكُم الفقرَ، ونقَضَ المروءَةَ؛ ولذتُنا فيمَا حَوى لنَا الغِنَى، وبَنَى المُرُوءَةَ . فنحنُ في بناءٍ ، وأنتمُ في هدْمٍ ؛ ونحنُ في إبرام ، وأنتمُ في نَقْضٍ ؛ ونحنُ في التماسِ العزِّ الدائمِ ، مع فَوْتِ بعضِ اللَّذةِ ، وأنتمُ في التعرُّض للذُّلِّ الدَّائِم، مَع فَوْتِ كلِّ مُرُوءةٍ » .

وقدْ فهمنَا معنَى حكايتِكَ ، وما لهِجْتَ بهِ منْ روايتكَ. والدليلُ علَى انتقاضِ طباعِك، وإدبارِ أَمركَ، استحسانُك ضدَّ ما كنتَ تستحسنُ ، وعِشقُك لِمَا لم تزلْ تمقُتُ. فبُعْدًا وسُحْقًا! ولا يُبعدُ اللهُ إلا من ظَلَم!

والشاعرُ أبصرُ بكمُ حيثُ يقولُ :

فإنْ سَمِعْتَ بهُلْكِ للبخيلِ فقلْ : بُعدًا وسُحقًا لهُ منْ هالكٍ مُودِي!

---

(١) الحدثان : المقصود نوائب الدهر . (٢) الجُنَّة : الوقاية .

(٣) الدثور : جمع دثر , وهو المال الكثير , وأصحابه هم الأغنياء الذين جمعوا أنواع الثواب .

(٤) الرغبة إلى الرجال : المقصود ذل سؤال الرجال .

تُـراثُـهُ جـنَّـةٌ لـلـوارثـيـنَ إذَا أَوْدَى ، وجُـثْـمـانُـه لـلـتُّـرْبِ والـدُّودِ

وقالَ آخرُ :

تَـبْـلَـى مـحـاسـنُ وجـهـهِ فـي قـبـرِه والـمـالُ بـيـنَ عـدوِّه مـقـسُـومُ

والحمدُ لِلَّه الذِي لم يُمِتْنِي حتَّى أَرانيكَ وكيلًا في مالِك، وأجيرًا لوارثكَ .

وأَمَّا أنتَ فقدْ تعجّلْتَ الفقْرَ قبلَ أوانِه، وصرتَ كالمجلودِ في غيرِ لذَّةٍ.

وهلْ تزيدُ حالُ منْ أَنفقَ جميعَ مالِه، ورأَى المكروهَ في عيالِه، وظهرَ فقْرُه، وشمِتَ به عدوُّهُ، عَلى أكثرَ من انصرافِ المُؤْنسينَ عنهُ، وعَلى بُغْضِ عيالِهِ، وعلَى خُشونة الملبَسِ، وخُشُونَةِ المأكلِ؟ وهذَا كلُّه مجتمعٌ في مَشْك البخيلِ، ومصبُوبٌ علَى هامةِ الشحِيحِ، ومُعجّل للئيمِ، وملازمٌ للمَنوعِ؛ أَلاَ إنَّ المُنْفِقَ قدْ ربحَ المَحْمَدَةَ، وتمتَّع بالنعمةِ، ولم يعطِّل المقدُرة، ووفَّى كلَّ خَصْلَةٍ منْ هذهِ حقَّها، ووفَّر عليها نصيبَها؛ والممسكُ معذّبٌ بحضْرِ نفسِهِ، وبالكدِّ لغيرِهِ؛ معَ لزومِ الحُجَّةِ، وسقوطِ الهمَّةِ، والتعرُّضِ للذمِّ والإهانَةِ، ومعَ تحكيم المِرَّةِ[1] السوداءِ في نفسِهِ، وتسليطَهَا علَى عِرضِهِ، وتمكينها منْ عيشِهِ وسرورِ قلبِهِ .

ولقدْ سرَى إليكَ عِرْقٌ ، ولقدْ دخلَ أعرَاقَك جَوْرٌ ، ولقد عَمِل فيهَا قادِح، ولقد غالها غُولٌ؛ وما هذَا المذهبُ منْ أخلاقِ صميمِ ثَقيفٍ، ولا من شِيَمِ أَعْرَقَتْ فيها قُرَيشٌ. ولقد عَرَضَ لكَ إقْرافٌ[2] ، ولقدْ أَفْسدَتْك هُجْنةٌ[3]. ولقدْ قالَ معاويةُ : من لمْ يكنْ من بني عبد المُطّلبِ جوادًا فهوَ دخيلٌ ، ومن لم يكنْ من آل الزُّبَيْر شجاعًا لهو لَزِيقٌ ، ومن لم يكن من بني المُغِيرةِ تيَّاهًا فهو سَنِيدٌ. وقال سَلْم بنُ قُتَيْبَة: إذَا رأيتَ الثَّقَفِيَّ يَعِزّ منْ غيرِ طعامٍ ، ويكسِبُ لغيرِ إنفاقٍ، فبَهْرِجْهُ ثم بَهْرِجْه ثم بَهْرِجْه. وقالَ بلالُ بنُ أبِي بُرْدَة: لولاَ شبابُ ثَقيفٍ وسفهاؤُهم ما كانَ لأهلِ البَصْرةِ مالٌ .

إنَّ اللهَ جوادٌ لا يبخَلُ ، وصَدُوقٌ لا يكذِبُ ، وَوَفِيٌّ لا يغْدِرُ ، وحليمٌ لا يَعْجَلُ ، وعَدْلٌ لا يظْلِمُ. وقد أَمَرَنا بالجودِ، ونهانَا عن البخلِ، وأمرنَا بالصدقِ، ونهانَا عن الكذِبِ، وأمرنَا بالحلم، ونهانَا عن العَجَلةِ ، وأمرنَا بالعدلِ، ونهانَا عن الظلمِ، وأمرنَا بالوفاءِ ، ونهانا عن الغدرِ .

فلمْ يأمرْنَا إلاَّ بما اختارَ لنفسِهِ ، ولم يزجرْنا إلاَّ عمَّا لم يرضَه لنفسِهِ. وقدْ قالُوا بأجمعهم : إنَّ اللهَ أجودُ الأجودِينَ، وأمجدُ الأمجدِينَ؛ كمَا قالُوا: أرحمُ الراحمينَ، وأحسنُ الخالِقينَ. وقالُوا في التأديبِ لسائِليهم، والتعليمِ لأَجْوادِهم : لا تُجَاوِدُوا اللهَ، فإنَّ اللهَ - جلَّ ذكرُه - أَجودُ وأمجدُ .

---

(١) المِرّة السوداء : هى خلط من أخلاط البدن وهو المسمى المزاج ، والمزاج الأسود هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس .

(٢) إقراف : أقرف الرجلُ أو الفرس : كان أحد أبويه عربيًا والآخر غير عربى .

(٣) هُجْنة : الهجين من الناس : الذى أبوه عربى وأمه أعجمية .

وذكَرَ نفسَه - جلَّ جلالُه، وتقدّسَتْ أسماؤهُ - فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] و﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2] وقال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[3].

وذكرُوا النبيَّ ﷺ، فقالُوا: لم يضعْ دِرْهما على دِرْهم، ولا لَبِنَةً على لَبِنَة. ومَلَكَ جزيرةَ العربِ، فقبضَ الصدقاتِ، وجُبِيَتْ له الأموالُ، ما بينَ غُدْرانِ العِراقِ إلى شَحْرِ عُمَان[4]، إلى أقصَى مَخاليفِ اليمنِ. ثم تُوُفِّي وعليه دَيْنٌ، ودِرْعُهُ مرهُونَةٌ.ولم يُسْأَلْ حاجةً قطُّ فقالَ: لاَ. وكانَ إذَا سُئِل أعْطَى، وإذا وَعَدَ أو أطْمَعَ كانَ وعدُه كالعِيانِ، وإطْماعُه كالإنجازِ. ومدحتهُ الشعراءُ بالجُودِ، وذكرتْهُ الخطباءُ بالسَّماحِ. ولقد كانَ يَهَبُ للرجلِ الواحدِ الضاجعةَ منَ الشَّاءِ، والعَرْجَ من الإبلِ- وكانَ أكثَرُ ما يهبُ المِلْكُ منَ العربِ مائةَ بعيرٍ، فيقالُ: وهَب هُنَيْدةً. وإنَّما يقالُ ذلكَ، إذا أُريدَ بالقولِ غايةُ المدحِ - ولَقَدْ وَهَب لرجلٍ أَلْفَ بعيرٍ. فلما رآها تزدحمُ في الهوادِي قالَ: أشْهَدُ أنَّك نبيٌّ. وما هَذا ممّا تجودُ به الأنفُسُ.

وفَخَرتْ هاشمٌ علَى سائرِ قريشٍ فقالُوا: نحنُ أطْعمُ للطعامِ، وأضربُ لِلْهامِ. وذكرها بعضُ العلماءِ فقالُوا: أجوادٌ أمجادٌ، ذوو ألسنةٍ حِدادٍ. وأجمعتْ الأمم كُلُّها بخيلُها وسخيُّها ومَمْزُوجُها، على ذمِّ البخلِ، وحمدِ الجودِ، كما أجمعُوا على ذمِّ الكذبِ وحمدِ الصدقِ. وقالواُ: أفضلُ الجودِ، الجودُ بالمجهودِ. وحتَّى قالُوا في جُهْدِ المُقِلِّ، وفيمن أَخرجَ الجُهد وأعطَى الكُلَّ. وحتَّى جعلُوا لمنْ جادَ بنفسهِ، فضيلةً علَى منْ جادَ بمالِهِ، فقالَ الفَرَزْدَقُ:

عَلى ساعةٍ لَوْ كان في القَوْمِ حاتمٌ على جُودِه ضَنَّتْ به نَفْسُ حاتِمِ[5]

ولم يكنْ الفرَزْدَقُ ليضربَ المثَلَ في هذا الموضعِ بكعبِ بن مامة[6]، وقدْ جادَ بحَوْبائِه[7] عند المُصَافَتَةِ. فما رأَينَا عربيًّا سفَّه حلمَ حاتمٍ لجودهِ بجميعِ مالِهِ. ولا رأينا أحدًا منهم سفَّه حِلْمَ كعبٍ على جودِه بنفسِه، بلْ جعلُوا ذلكَ منْ كَعْبٍ لإيادٍ مفْخَرًا. وجعلُوا ذلك من حاتمٍ طَيِّئٍ مَأْثُرَةً لقَحْطانَ علَى عَدْنانَ، ثم للعربِ على العجمِ، ثم لسكَّانِ جزيرةِ العربِ ولأَهلِ تلكَ البَرِّيّةِ على سائرِ الجزائرِ والتُّرَبِ.

فمنْ أرادَ أن يخالفَ ما وصفَ اللهُ - جلّ ذكرُه - به نفسَه، وما مَنحَ من ذلكَ نبيَّه، وما فَطَرَ على تفضيلِهِ العربَ قاطبةً، والأُمَمَ كافّةً، لم يكنْ عندنا فيه إلاَّ إكفارُه واستسقاطُهُ[8].

---

(١) [البقرة: ١٠٥] . (٢) [غافر : ٣] . (٣) [الرحمن : ٢٧] .

(٤) شَحْر عُمان : ساحل البحرين عُمَان وعدن . (٥) ديوانه [٨٤٢] .

(٦) كَعْب بن مَامَة بن عمرو بن ثعلبة الإيادى , أبو داود : كريم , جاهلى . يضرب به المثل فى حسن الجوار , فيقال : (أجود من كعب بن مامة) و(جار كجار أبى دؤاد) . وهو صاحب القصة المشهورة فى الإيثار : (اسق أخاك النميري) قال أبو عبيدة : أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة , وحاتم طيئ , وهرم بن سنان . الأعلام [٥/ ٢٢٩] .

(٧) بحَوْبائِه : الحوباء : النَّفس .

(٨) إكفاره : أى دعوته كافراً , واستسقاطُه : أي إسقاطه من بين العقلاء .

ولم نرَ الأمّةَ أبغضَتْ جوادًا قطُّ ، ولا حَقَرتْه، بلْ أحبّتْهُ وأعْظَمَتْه، بلْ أحَبَّتْ عَقِبَه وأعْظَمَتْ منْ أجْلِهِ رَهْطَهُ. ولاَ وجَدْناهم أبغضُوا جوادًا ، لمجاوزتِهِ حدَّ الجودِ إلَى السَّرَفِ، ولا حَقَرتْه. بلْ وجَدْناهُم يتعلَّمون مناقِبَه، ويتَدَارسُون محاسنَه. وحتَّى أضافُوا إليهِ منْ نوادرِ الجميلِ ما لم يفعلْه، ونَحَلُوه منْ غرائبِ الكرمِ ما لم يكنْ يبلغُهُ. ولذلكَ زعمُوا أنَّ الثناءَ في الدنيَا يُضَاعَفُ، كما تُضاعَفُ الحسنَاتُ في الآخرةِ. نعمْ، وحتَّى أضافُوا إليهِ كلَّ مديحِ شارِدٍ، وكلَّ معروفٍ مجهولِ الصاحبِ. ثم وجدنَا هؤلاءِ بأعيانِهِم للبخيلِ، على ضدِّ هذِهِ الصفة، وعلى خلافِ هذا المذهبِ: وجدنَاهُم يُبغضونَه مَرَّةً ويحقِّرونَه مرَّةً، ويُبْغِضونَ بفضلِ بُغْضِه وَلَدهُ، ويحتقرونَ بفضلِ احتقارِهم لهُ رهْطَه، ويضيفونَ إليْهِ منْ نوادرِ اللؤمِ ما لمْ يبلُغْهُ ، ومنْ غرائبِ البخلِ ما لمْ يفعلْه. وحتَّى ضاعفُوا عليه منْ سوءِ الثناءِ، بقدرِ ما ضاعفُوا للجوادِ منْ حسنِ الثناءِ.

وعلَى أنَّا لا نجدُ الجوائحَ[1] إلَى أموالِ الأسخياءِ، أسرعَ منهَا إلَى أموالِ البخلاءِ، ولا رأينَا عددَ منِ افتقرَ منَ البخلاءِ أقلَّ . والبخيلُ عندَ الناسِ ليسَ هُو الذِي يبخَلُ علَى نفسهِ فقطْ؛ فقدْ يستحقُّ عندَهم اسمَ البخيلِ، ويستوجبُ الذمَّ، مَنْ لا يدَعُ لنفسهِ هوًى إلاَّ ركبَه، ولا حاجةً إلاَّ قضاهَا، ولا شهوةً إلاَّ ركِبَهَا وبلغَ فيها غايتَهُ . وإنَّما يقعُ عليه اسمُ البخيلِ، إذا كانَ زاهدًا في كلِّ ما أوجبَ الشكرَ، ونَوّه بالذكرِ، وادَّخر الأجرَ.

وقدْ يُعَلِّقُ البخيلُ على نفسهِ منَ المُؤَنِ، ويُلزمَها منَ الكُلَفِ، ويتّخِذُ منَ الجوارِي والخَدَمِ، ومنَ الدوابِّ والحشَمِ، ومن الآنيةِ العجيبةِ، ومنَ البِزَّةِ[2] الفاخرةِ. والشارةِ الحسَنةِ، ما يُزْرِي علَى نَفَقَةِ السَّخيِّ المُثْرِي، ويَضْعُف على جودِ الجوادِ الكريمِ. فيذهبُ مالُه وهوَ مذمومٌ ، ويتغيرُ حالُه وهو مَلُوم. وربَّما غلَب عليهِ حبُّ القِيَانِ[3]، واسْتُهْتِر بالخِصْيانِ. وربَّما أفرطَ في حبِّ الصيدِ، واستولَى عليه حبُّ المراكبِ. وربَّما كانَ إتلافُه في العُرْسِ والخُرْسِ[4] والوليمةِ، وإسرافُه في الإعذارِ[5] وفي العَقِيقَةِ والوَكِيرةِ[6]. وربَّما ذهبتْ أموالُه في الوضائعِ والودائعِ.

وربَّما كانَ شديدَ البخلِ، شديدَ الحبِّ للذِّكرِ، ويكونُ بخلُه أوشَجَ، ولؤمُه أقْبَحَ؛ فينفقُ أموالَه ويُتلفُ خزائنَه، ولم يَخْرُج كَفافًا، ولم ينْجُ سليمًا .

كأنَّك لم ترَ بخيلًا مخدوعًا، وبخيلًا مضْعُوفًا، وبخيلًا مِضْياعًا، وبخيلًا نفَّاجًا[7]، وبخيلًا ذهبَ مالُه في البناءِ، وبخيلًا ذهبَ مالُه في الكِيمِياءِ، وبخيلًا أنفقَ مالَه في طمعٍ كاذبٍ، وعلَى أملٍ خائبٍ، وفي طلبِ الولاياتِ، والدخولِ في القَبالاتِ[8]؛ وكانتْ فتنتُه بمَا يؤمِّلُ من الإمْرةِ، فوقَ

---

(١) الجوائح : جمع جائحة , وهى الآفة .

(٢) البِزَّة : الهيئة . (٣) القيان : هى الأمة البيضاء مغنية أو غير مغنية . (٤) الخُرْس : طعام يصنع ابتهاجاً بالولادة .

(٥) الإعذار : وليمة الختان . (٦) الوكيرة : الطعام يعمل عند الفراغ من البناء .

(٧) نفَّاجاً : المتكبر الذى يفخر بما ليس عنده . وقد سبق . (٨) القبالة : الكفالة ، والقبيل : الكفيل والضامن .

فتنتِه بمَا قدْ حواهُ من الذهبِ والفضَّةِ.

قدْ رأيناهُ ينفقُ على مائدتهِ وفاكهتِهِ ألفَ دِرْهم في كلِّ يوم، وعندَه في كلِّ يوم عُرْسٌ؛ ولأَن يَطْعنَ طاعنٌ في الإسلامِ، أهونُ عليهِ من أن يَطعنَ طاعِنٌ في الرغيفِ الثاني، ولَشَقٌّ عصَا الدِينِ، أهونُ عليهِ من شقِّ رغيفِ. لا يَعُدُّ الثُّلْمَةَ في عِرْضه ثُلْمةً، ويَعُدُّها في ثريدتهِ من أعظَمِ الثُّلَم.

وإنَّما صارتْ الآفاتُ إلى أموالِ البخلاءِ أسرعَ، والجوائحُ عليهم أكلبَ؛ لأنَّهم أقلُّ توكُّلًا، وأسوأُ باللهِ ظنًّا. والجوادُ إمَّا أنْ يكونَ متوكِّلًا، وإمَّا أن يكونَ أحسنَ بالله ظَنًّا. وهو على كلِّ حالٍ بالمتوكِّل أشْبهُ، وإلى ما أشبَهه أنزعُ. وكيفما دارَ أمرُه، ورجعَتِ الحالُ به، فليسَ ممّن يتَّكلُ على حزمِهِ، ويلجأ إلى كَيْسِهِ[1]، ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياطِهِ، وشدَّةِ احتراسه.

واعتلالُ البخيل بالحَدَثانِ[2]، وسوءِ الظنِّ بتقلُّبِ الزمانِ، إنَّما هو كنايةٌ عن سوءِ الظنِّ بخالق الحَدَثانِ، وبالَّذِي يُحدِث الأَزْمانَ، وأهلَ الزمانِ. وهل تجري الأَحْداثُ إلاَّ على تقديرِ المحدِث لها؟ وهل تختلفُ الأزمنةُ إلاَّ على تصريفِ من دبَّرها؟ أَوَ لَسنَا، وإن جهِلنا أسبَابَها، فقد أَيْقَنَّا بأنَّها تجري إلى غاياتِهَا؟

والدليلُ على أنَّه ليسَ بهمْ خوفُ الفقرِ، وأنَّ الجمعَ والمنعَ إمَّا أنْ يكونَ عادةً منهُم، أو طبيعةً فيهمْ، أنَّك قدْ تجدُ الملكَ بخيلًا، ومملكتُه أوسعُ، وخَرْجُه[3] أدَرُّ، وعدوُّه أسكن[4]. وتجدُ أحزمَ منهُ جوادًا، وإنْ كانتْ مملكتُه أضيقَ، وخَرْجُه أقلَّ، وعدوُّه أشدَّ حركةً.

وقد علِمنَا أنَّ الزَّنْجَ أقصرُ الناسِ مِرَّةً ورَوِيَّةً، وأذهلُهم عنْ معرفةِ العاقبةِ. فلو كانَ سخاؤُهم إنَّما هوَ لكلالِ حَدِّهِم، ونقصِ عقولِهم، وقلَّة معرفتِهم، لكانَ ينبغِي لفارسَ أنْ تكونَ أبخلَ منَ الروم؛ وتكونَ الرومُ أبخَلَ منَ الصقالبةِ[5]؛ وكانَ ينبغِي في الرجالِ في الجملةِ، أن يكونُوا أبخلَ من النساءِ في الجملةِ؛ وكانَ ينبغِي للصبيانِ أنْ يكونوا أسخَى منَ النساءِ؛ وكانَ ينبغِي أن يكونَ أقلُّ البخلاءِ عقلًا؛ أعقلَ من أشدِّ الأجوادِ عقلًا؛ وكانَ ينبغِي للكلبِ - وهو المضروبُ بهِ المَثَلُ في اللؤمِ - أنْ يكونَ أعرفَ بالأمورِ منَ الديكِ، المضروبِ به المثلُ في الجودِ.

قالُوا: «هُو أسخى من لافِظةٍ» و«ألأَمُ من كلبٍ علَى جِيفةٍ» و«ألأَمُ من كلبٍ على عَرْقٍ». وقالوا: «أجِع كلبَك يتْبَعْك»، و«نَعِمَ كلبٌ في بؤسِ أهلِهِ»، و«سمِّنْ كلبَك يأْكُلْكَ»، و«أحرَصُ من كلبٍ علَى عِقْبِ صَبيٍّ»، و«أجوعُ من كلبةِ حَوْمَلٍ»[6]، و«لهو أبْذَأُ من كلبٍ»، و«حَشَّ فُلانٌ

---

(١) كَيْسه : عقله وفطنته .

(٢) الحدثان : حدثان الدهر : نوائبه وحوادثه ، وقد سبقت .

(٣) خرجه : الخراج : ما يحصل من غلة الأرض , ودَرَّ بمعنى : كثر ، فالمال موفور لديه .

(٤) أسكن : يعني غير متحفز لقتاله , بل الحال فى هدوء .

(٥) الصقالبة : جيل من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا الآن فى كثير من شرقى أوربا وهم المسمون الآن بالسلاف .

(٦) حومل : اسم لامرأه كانت لها كلبة لا تطعمها تحرسها ليلاً فإذا جاء النهار طردتها قائله لها : التمسي لنفسك لا ملتمس لكِ . فأكلت ذنبها من الجوع وطول المدة .

من خُرْءِ الكلبِ »، و« اخْسَأْ! »، كما يقال للكلبِ، و« كالكلبِ في الآرِيِّ: لا هو يعتلِفُ، ولا هو يتركُ الدَّابّة تعتلفُ » .

وقالَ الشاعرُ :

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عَرَسَتْ على رَجُل بالعَرْجِ ألأمَ من كَلْبِ

وقال الله جلَّ ذِكْره : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾[1] . وكانَ ينبغي في هذَا القياسِ أَنْ يكونَ المَرَاوِزةُ أعقلَ البَرِيَّة، وأهلُ خُراسَانَ أَذْرَى البريَّةِ.

ونحنُ لا نجدُ الجوادَ يفِرُّ من اسمِ السَّرَفِ إِلَى الجودِ، كما نجدُ البخيلَ يَفِرُّ من اسمِ البخلِ إِلَى الاقتصَادِ. ونجدُ الشجاعَ يَفِرُّ من اسْمِ المنهزِمِ، والمستحِي يفرُّ من اسمِ الخَجِلِ. ولو قيل لِخَطيبٍ ثابتِ الجَنانِ: وَقَاحٌ[2]، لجَزِعَ - فلو لم يكنْ منْ فضيلةِ الجودِ إلاَّ أَنَّ جميعَ المتجاوزينَ لحدودِ أصنافِ الخيرِ يكرهونَ اسمَ تلكَ الفضْلةَ - إلاَّ الجوادَ، لقدْ كانَ في ذلكَ ما يُبينُ قَدْرَهُ، ويُظْهِرُ فضلَهُ.

المالُ فاتنٌ، والنفْسُ راغبةٌ، والأموالُ ممنوعةٌ، وهيَ علَى ما مُنِعَتْ حريصةٌ. وللنفوسِ في المُكاثرةِ عِلَّةٌ معروفةٌ ؛ لأنَّ من لا فِكرةَ لَهُ ولا رَوِيَّة، مَوكَّلٌ بتعظيمِ ذي الثروَةِ، وإنْ لم تكنْ منهُ مَنالةٌ[3] . وقدْ قالَ الأَولُ:

وَزَادَها كَلَفًا بالحبِّ أنْ مُنِعَتْ أحَبُّ شيءٍ إِلَى الإنسانِ ما مُنِعَا[4]

وفي بعضِ كتبِ الفُرْسِ : كلُّ عزيزٍ تحتَ القدرةِ فهوَ ذليلٌ. وقالتْ مُعاذةُ العَدَويَّةُ: « كلُّ مقدورٍ عليه فَمَقْلِيٌّ أو محقورٌ » .

ولو كانُوا لأولادِهم يجمعونَ، ولهم يكُدُّون، ومنِ أجلِهِمْ يَحرِصُونَ، لجعلُوا لهم كثيرًا ممَّا يطلبونَ، ولتركُوا محاسبتَهم في كثيرٍ ممَّا يشتهونَ. وهذَا بعضُ ما بغَّضَ بعضَ المورِّثين إلى الوارِثينَ، وزهَّد الأخلافَ[5] في طولِ عُمُرِ الأسْلاَفِ.

ولو كَانُوا لأولادِهِم يُمهِّدُونَ، ولهم يجمعُونَ، لمَا جمعَ الخِصيانُ الأموالَ، ولَمَا كنَزَ الرهبانُ الكنوزَ، ولاستراحَ العاقلُ من ذلِّ الرغبةِ، ولسلِمَ العقيمُ من كدِّ الحِرْصِ. وكيفَ؟ ونحنُ نجدُه بعدَ أنْ يموتَ ابنُه الذِي كانَ يعتلُّ به، والذي منْ أَجلِه كانَ يجمعُ، على حالِهِ في الطلبِ والحرصِ، وعلَى مِثْل ما كانَ عليهِ من الجمعِ والمنعِ.

والعامةُ لم تُقصِّرْ في الطلبِ والحُكْرةِ[6]، والبخلاءُ لم يَحُدُّوا شيئًا من جُهْدِهم، ولا أعْفَوْا بعدَ

---

(١) [الأعراف : ١٧٦] . (٢) وقاح : وقح الرجال : قلّ حياؤه واجترأ على اقتراف القبائح .

(٣) منالة : المنالة العطاء . (٤) عيون الأخبار [٢/ ٥] , واللسان (حبب) مع بعض الخلاف .

(٥) الأخلاف : جمع خَلَف , وهم أبناء الإنسان الذين يخلفونه بعد رحيله عن الدنيا .

(٦) الحُكْرة : الحكرة هنا الجمع والإمساك وهى أيضاً الاحتكار .

قدرتِهم، ولا قَصَّروا في شيءٍ من الحِرْصِ والحَصَرِ[1]؛ لأنَّهم في دارِ قُلْعَةٍ، وبِعَرَضِ نُقْلةٍ. حتَّى لو كانُوا بالخلودِ موقِنِينَ، لأغفلُوا تلكَ الفُضُولَ.

فالبخيلُ مجتهدٌ، والعاميُّ غيرُ مقصِّرٍ. فمنْ لم يستعِنْ علَى ما وصفنَا بطبيعةٍ قويَّةٍ، وبشهوةٍ شديدةٍ، وبنظرٍ شافٍ، كانَ إمَّا عاميًّا، وإمَّا بخيلًا شقِيًّا - فَفِيمَ اعتلالُهم بأولادِهمْ، واحتجاجُهم بخوفِ التلوُّنِ منْ أزمنتِهم؟

قالَ رسولُ الله ﷺ لوافِدٍ كَذَب عنده كَذْبةً، وكانَ جوادًا: «لولَا خَصْلةٌ وَمِقَكَ اللهُ عليها، لَشَرَّدْتُ بِكَ مِن وافدِ قومٍ»[2]. وقيل للنبيِّ ﷺ: هل لك في بِيض النِّساءِ وأُدْمِ الإبلِ؟ قالَ: ومَنْ هُم؟ قال: بنو مُدْلِجٍ[3]. قالَ: يمنعني من ذاك قِرَاهم الضيفَ، وصلتُهم الرَّحِمَ. وقالَ لهمْ أيضًا: إذا نحَرُوا ثَجُّوا، وإذا لَبَّوْا عَجُّوا. وقال للأنصار: مَنْ سيِّدُكم؟ قالوا: الحُرُّ بنُ قيسٍ، على أنَّه يُزَنُّ فينَا ببخلٍ، فقالَ: وأيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ منَ البخلِ[4]؟ ثم جعلَه من أدْوَإِ الداءِ. وقال للأنصارِ: أمَا واللهِ ما علِمتكم إلا لتَكثرُون عندَ الفَزَعِ، وتَقِلُّونَ عندَ الطَّمعِ. وقالَ: كفَى بالمرءِ حِرصا ركوبُه البحرَ. وقالَ: لو أنَّ لابن آدمَ واديَيْنِ من مالٍ لابتغَى ثالثًا، ولا يُشْبِعُ ابنَ آدمَ إلاَّ الترابُ؛ ويتوبُ اللهُ علَى منْ تابَ[5]. وقالَ: السخاءُ منَ الحَياءِ، والحياءُ منَ الإيمانِ. وقال: إنَّ اللهَ جوادٌ يُحبُّ الجودَ[6]. وقال: أَنْفِقْ يا بلالُ، ولا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إقْلالًا[7]. وقال: لا تُوكِي فَيُوكَى عليك. وقال: لا تُحْصِ فيُحصَى عليك[8]. وقالوا: لا ينفَعُك مِنْ زادٍ ما تبقَّى.

ولم يُسَمِّ الذهبَ والفضَّة بالحجرينِ إلاَّ وهوُ يريدُ أن يضَع من أقدارِهِمَا، ومن فتنةِ الناسِ بهمَا. وقالَ لقَيْسِ بنِ عاصمٍ[9]: إنَّما لَكَ مِنْ مالِكَ مَا أَكَلْتَ فأفْنَيتَ، وما لَبِستَ فأَبلَيتَ، أو أعطيتَ فأمْضَيتَ. وما سِوَى ذلك فللوارثِ[10].

وقالَ النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ[11]:

وحثَّتْ على جمْعٍ ومنعٍ ونفسُها ... لهَا في صُروفِ الدهرِ حَقُّ كَذُوبِ

---

(١) الحصَر: البخل.

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر [٥/ ٢٣٠] وَمِقَك اللهُ عليها: أحبَّك عليها.

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر [١/ ٣٢].

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر [٢/ ١٤٢، ٣١٦] ويُزَنّ: يُتّهم. وأىُ داءٍ أدْوَأ من البخل، أى: أىُ عَيْب أقبحُ منه.

(٥) أخرجه الشيخان، والترمذى وابن ماجة والبزار وأحمد.

(٦) صحيح. أخرجه الترمذى فى الأدب. باب ما جاء فى النظافة [٢٧٩٩] والسيوطى فى الجامع الصغير [١/ ٧٠].

(٧) صحيح. أخرجه التبريزى فى مشكاة المصابيح. كتاب الزكاة. باب الإنفاق وكراهية الإمساك [١٨٨٥].

(٨) أخرجه البخارى فى الزكاه. باب التحريض على الصدقة، والشفاعة فيها [٣/ ٣٥١، ٣٥٢] وأبو داود والترمذى والنسائى وأحمد.

(٩) قَيْس بن عاصِم المنقرى بن سنان السعدى التميمى، أبو على: أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعراً، اشتهر وساد فى الجاهلية. أسلم سنة ٩ هـ ثم استعمل على جمع صدقات قومه بنى تميم، ثم نزل البصرة فى أواخر أيامه، وروى أحاديث كثيرة عن النبى (ﷺ). الأعلام [٥/ ٢٠٦].

(١٠) أخرجه مسلم فى الزهد. باب الزهد والرقائق [٣، ٤] والترمذى والنسائى وأحمد.

(١١) النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلى: شاعر مخضرم. أدرك الإسلام وهو كبير السن وكان من كبار الصحابه رضى الله عنه.

وكـائِـنْ رأيـنَـا مـنْ كـريـمٍ مُـرَزَّإٍ ... أخِـي ثِـقـةٍ طَـلْـقِ الـيَـدَيْـنِ وَهُـوبِ
شـهِـدْتُ وفـاتـونِي وكـنـتُ حَـسِـبْـتُـنِي ... فـقـيـرًا إلَـى أنْ يَـشْـهـدُوا وتَـغـيـبِـي
أعـاذلُ إن يُـضْـبِـخْ صَـدايَ بـقَـفْـرةٍ ... بـعـيـدًا نـآنـي صـاحِـبِـي وقَـريـبِـي
تَـرَى أنَّ مـا أبـقـيـتُ لـم أكُ ربَّـهُ ... وأنَّ الـذي أمْـضَـيْـتُ كـان نَـسـيـبِـي
وذِي إبـلٍ يَـسْـعَـى ويَـحْـسِـبُـهـا لـهُ ... أخِـي نَـصَـبٍ فـي رَعْـيِـهـا ودُءُوبِ
غَـدَتْ وَغَـدَا رَبٌّ سِـواه يَـسـوقُـهـا ... وبُـدِّل أحـجـارًا وجـالَ قَـلـيـبِ[1]

وقالَ أيضًا :

قَـامـتْ تَـبَـاكَـى أنْ سَـبَـأْتُ لِـفـتْـيَـةٍ ... زِقًّـا وخـابـيـةً بـعَـوْدٍ مُـقْـطَـعِ[2]
وقَـرَيـتُ فـي مِـقْـرًى قـلائـصَ أربـعًـا ... وقـريـتُ بـعـد قِـرَى قـلائـصَ أرْبَـعِ
أتَـبـكِّـيـا مِـنْ كـلِّ شـيءٍ هـيِّـنٍ؟ ... سَـفَـهٌ بـكـاءُ الـعَـيْـنِ مـا لـم تَـدْمَـعِ
فَـإذَا أتَـانِـي إخْـوَتِـي فـدعِـيـهـمُ ... يـتـعـلَّـمُـوا بـالـعـيـشِ أو يَـلْـهُـوا مـعـي
لا تَـطْـرِدِيـهـمْ عَـنْ فـراشِـي إنَّـهُ ... لا بُـدَّ يـومًـا أنْ سَـيَـخْـلُـو مَـضْـجَـعِـي
هـلاَّ سـألـتِ بـعـادِيـاءَ وبـيـتِـهِ ... والـخَـيْـلِ والـخـمـرِ الـتـي لـم تُـمْـنَـعِ[3]

وقال الحارثُ بن حِلِّزَةَ[4] :

بَـيْـنَـا الـفـتـى يَـسْـعَـى ويُـسْـعَـى لـه ... تـاحَ لـه مـن أمـره خَـالـجُ[5]
يـتـرُكُ مـا رقَّـحَ مـن عَـيْـشِـه ... يـعـبَـثُ فـيـهِ هَـمَـجٌ هـامـجُ[6]
لا تَـكْـسَـعِ الـشَّـوْلَ بـأغـبـارِهـا ... إنَّـك لا تَـدْري مَـنِ الـنـاتـجُ[7]

وقال الهُذَليُّ :

إنَّ الـكـرامَ مُـنـاهِـبُـو ... كَ الـمـجـدَ كـلَّـهـمُ فـنـاهِـبْ
أخْـلِـفْ وأتْـلِـفْ ، كـلُّ شَـيْـ ... ءٍ ذرَّعَـتْـه الـرِّيـحُ ذاهـبْ[8]

---

(١) القليب : البئر ، والمقصود هنا القبر . والجال : ناصيته ، أى : هذه الإبل ملكها غيره وبدّل هو بها أحجار القبر . والأبيات فى شعر النمر بن تولب [٣٩-٤١] صنعة : د. نورى حمودى القيسي . وانظر أيضاً : الكامل [١/ ٣٧٣] ، وطبقات فحول الشعراء [١/ ١٦١، ١٦٢] ، والأغانى [١٩/ ١٦١] ، والبيان والتبيين [١/ ٢٨٤] .

(٢) سبأت : اشتريت ، والزق : وعاء من جلد للشراب وغيره . والخابية : وعاء الماء الذى يحفظ فيه .

(٣) شعر النمر بن تولب [٧٢,٧٣] ورواية الأخير : . . . . والخَل والخمر . . . .

(٤) الحارث بن حلزة اليشكرى الوائلى : شاعر جاهلى من أهل العراق . وهو أحد أصحاب المعلقات . مات نحو سنة ٥٠ ق.هـ .

(٥) تاح : قدر أو تهيأ - الخالج : ما يختلج المرء وينتزعه من موت ونحوه .

(٦) رقح ماله أو عيشه : أصلحه وقام عليه . فى البيان (بعيث) بدلا من (يعبث) ، والهمج : الحمقى .

(٧) الكسع : ضرب الماء على الضرع ليرتفع اللبن فتسمن الناقة ، أو يسمن أولادها فى بطنها - الشول : جمع شائلة ، وهى التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها - الأغبار : جمع غُبر ، وهو بقية اللبن فى الضرع . والأبيات فى البيان والتبيين [٣/ ٣٠٣، ٣٠٤] .

(٨) عزاه فى البيان والتبيين للمسعودى وهو عبيد الله بن عتبة بن مسعود ، [٣/ ٢٥٢,١٩٤-٤/ ٦٩] وفيه رواية : (زعزعته) بدلاً من (ذرّعته) .

وقالت امرأةٌ :

أنتَ وهبتَ الفِئيةَ السَّلاهِبْ وإبلًا يَحارُ فيها الحالِبْ[1]

وغَنَمًا مثلَ الجرادِ الهاربْ متاعَ أيامٍ، وكلٌّ ذاهبْ[2]

وقال تَميمُ بن [أُبيّ بن] مُقْبِل[3] :

فَأَخْلِفْ وأَتْلِفْ إِنَّما المالُ عَأرَةٌ وَكُلُّهُ مع الدَّهْرِ الَّذي هُوَ آكِلُهْ[4]

وقال أبو ذَرٍّ : لك في مالِك شريكانِ : الوارثُ والحَدَثان.

وقال الحُطَيْئَةُ :

مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والنَّاسِ[5]

وجاءَ في الأثر : إنَّ أهلَ المعروف في الدنيا أهلُ المعروف في الآخرة. وفي المَثَل: اصنَع الخيرَ ولو إلَى كلبٍ : وقال في الحثِّ على القليلِ ، فضلًا على الكثير: قالَ اللهَ جلَّ ذكرُه : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[6]. وقالت عائشةُ في حَبّةِ عنب: إنَّ فيها لمثاقيلَ ذَرٍّ. ولذلكَ قالُوا في المَثَل: من حَقَر حَرَم. وقال سَلْمُ بنُ قُتَيْبَةَ: يستحِي أَحَدُهم من تقريب القليل من الطعام، ويَأبَى أعْظَمَ منه. وقال : جُهْد المرء أكثرُ من عَفْوه. وقدّم رسولُ الله ﷺ جُهْدَ المُقِلّ على عَفْو المُكْثِر، وإن كان مبلَغُ جُهْدِه قليلا، ومَبْلَغُ عَفْو المُكْثِر كثيرًا. وقالوا: لا يمنعْك من معروف صِغَرُه. وقال النبيُّ ﷺ : اتّقوا النارَ ولو بِشقِّ تمرة[7]. وقال : لا تردُّوا السائلَ ولو بِظِلْفٍ مُحْرَق[8]؛ وقال : لا تردُّوه ولو بفِرْسِن شاةٍ[9] . وقال : لا تُحَقِّروا اللقمةَ؛ فإنَّها تعود كالجبل العظيم؛ لقول الله جلّ ذِكْره : ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[10] . وقال : لا تردّوه ولو بِصلَةِ حبل.

وقالت العرب : أتاكُم أخُوكم يَسْتَتِمُّكمُ، فأتمُّوا له. وقالُوا : مانعُ الإتمامِ أَلْوَمُ. وقالُوا: البخيلُ إن سألَ ألْحَفَ، وإن سُئِل سَوّفَ. وقالُوا : إن سُئِل جَحَدَ، وإنْ أعطَى حَقَدَ. وقالُوا : يردُّ قبلَ أن يسمَعَ ، ويغضَبُ قبلَ أن يَفْهمَ. وقالُوا : البخيلُ إذَا سُئِل ارْتَزَّ، وإذا سُئِل الجوادُ اهْتَزَّ. وقال النبيُّ ﷺ : « ينادِي كلَّ يوم مناديان من السماء: يقولُ أَحدُهما : اللّهمّ عجِّل لمنْفقٍ خَلَفًا، ويقولُ الآخَرُ: اللّهم عجِّل لممْسِكٍ تَلَفًا »[11]. وقالوا : شرُّ الثلاثَةِ المُليمُ، يمنَعَ دَرَّه ودَرَّ غيرِه. وقال اللهُ جلّ ذِكْرُه:

---

(١) فى البيان : (وهَجمة) بدلاً من (وإبلا) . (٢) فى البيان : (السارب) بدلا من (الهارب) ، والبيتان فيه [٣/ ١٩٤] .

(٣) تميم بن أبىّ بن مقبل ، من بنى العجلان . شاعر جاهلى أدرك الإسلام وأسلم . توفى نحو سنة ٢٥ هـ .

(٤) ديوانه [٢٤٣] . (٥) ديوانه [ص ٥١] . (٦) [الزلزلة : ٧ - ٨] .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق . باب صفة الجنة والنار [١١/ ٤٢٥] وفى مواضع أخرى . ومسلم فى الزكاة . باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة . . . . . [٦٨] والنسائى والدارمى وأحمد .

(٨) أخرجه مالك فى الموطأ فى صفة النبى ﷺ . باب ما جاء فى المساكين [٨] , والنسائى وأحمد والترمذي وابن حبان والحاكم . ورواية : (رُدُّوا السائلَ أو المسكين . . . . .) وردوا السائل , أى : أعطوه - محرق : مَشْوِىّ .

(٩) الفِرْسِن : للبعير كالحافر للفَرَس , وكالقَدَم للإنسان (ج) فَرَاسِنُ . (١٠) [البقرة : ٢٧٦] .

(١١) أخرجه البخارى فى الزكاة . باب قول الله تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . . . . . ﴾ [٣/ ٣٥٧] ومسلم فى الزكاة - باب فى المنفق والممسك [٥٧] وأحمد .

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾[1] وقالُوا في المَثَلِ - إن ألجأكَ الدَّهرُ إلى بخيلٍ : شرُّ ما ألْجأكَ إلى مُخَّة عُرْقوبٍ. وقالَ النبيُّ ﷺ : « قُلِ العَدْلَ ، وأَعْطِ الفَضْلَ ». وقال النبيُّ ﷺ : « أنهاكُم عن عقوقِ الأمهاتِ، وَوَأْدِ البناتِ، ومنعِ وهاتِ »[2]. وقالَ اللهُ عزّ وجلَّ : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[3] . وقالَ : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4] . وقال : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5] . وقالُوا في الصَّبْرِ على النائبة، وفي عاقبةِ الصبرِ: عندَ الصباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى. وقالُوا : الغَمَراتُ ثُم يَنجلينَ .

وقالَ الخُرَيْمِيُّ :

ودُونَ النَّدَى في كلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ ... بِهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحَدَرٌ سَهْلُ
وَوَدَّ الفتَى في كلِّ نَيْلٍ يُنيلُه ... - إذَا ما انْقَضَى - لو أنَّ نائلَه جَزْلُ[6]

وقالُوا : خيرُ الناسِ ، خيرُ الناسِ للناسِ ؛ وشرُّ الناسِ، شرُّ الناسِ للناسِ . وقالُوا: خيرُ مالِك ما نَفَعَك. وقالُوا : عَجَبًا لِفَرْطِ الكِبْرَةِ، معَ شبابِ الرغبةِ !

وقالَ الراجزُ :

كلُّنا يأمُلُ مدًّا في الأَجَلْ ... والمنايا هي آفاتُ الأَمَلْ[7]

وقالَ عُبَيْد الله بنُ عِكْراشٍ : زمنٌ خَئونٌ ، وَوَارِثٌ شَفُونٌ[8] ، وكاسبٌ حَزُونٌ[9]. فَلاَ تأمنِ الخُونَ ، وكنْ وارثَ الشَّفُونِ. وقالَ : يهْرَمُ ابنُ آدمَ ويشِبُّ معه خَصْلتان الحِرْصُ والأَمَلُ .

وكَانُوا يَعِيبُونَ منْ يأْكُلُ وحْدَهُ ، وقالُوا : ما أَكَلَ ابن عُمَرَ وحدَه قطُّ . وقالُوا: ما أكلَ الحَسَنُ وحدَهُ قَطُّ . وسَمِع مُجاشِعٌ الرَبَعِي قولَهم : الشَّحِيحُ أعذرُ مِنَ الظَّالِمِ، فقالَ: أخزَى اللهُ أمْرين خيرُهُما الشُّحّ . وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَنِيُّ: لو كانَ هذَا المسجدُ مُفْعَمًا بالرجَالِ، ثُمَّ قيلَ لِي: مَنْ خيرُهُم؟ لَقُلتُ : خيرُهُم لهُم. وقالَ النبيُّ ﷺ : « ألاَ أُنبِئُكُم بِشرَارِكُم؟ قالُوا : بَلَى يا رسولَ اللهِ. قالَ : مَنْ نَزَلَ وَحْدَه، ومَنَعَ رِفْدَهُ، وجَلَدَ عَبْدَهُ »[10] وقالتِ امرأةٌ عندَ جَنازةِ رجلٍ : أَمَا واللهِ ما كانَ مَالُكَ لبَطْنِكَ، ولا أَمْرُكَ لِعِرْسِكَ .

فلَمَّا بلغَتِ الرسالةُ ابنَ التَّوْأَمِ، كرِهَ أنْ يُجيبَ أبَا العَاصِ، لِمَا في ذَلِكَ منَ المناقشَةِ والمباينَةِ،

---

(١) [النساء : ٣٧] .

(٢) أخرجه البخارى فى الاعتصام . باب مايكره من كثرة السؤال [١٣/ ٢٧٨، ٢٧٩] وفي مواضع أخرى. ومسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة . . . . . [١٢,١٤] والدارمى وأحمد .

(٣) [الإنسان : ٨] . (٤) [آل عمران : ٩٢] . (٥) [الحشر : ٩] . (٦) البيان والتبيين [١/ ٢٧٤-٢/ ٣٥٢] .

(٧) البيان والتبيين [٣/ ١٩٤] غير منسوب . وفي الحيوان (٦/ ٥٠٨ ، ٥٠٩] لأبى النجم العجلى.

(٨) الشفون : الناظر بمؤخر عينه كارهاً أو ساخراً ويقصد هنا المترقب وفاة مورثه .

(٩) الحزون : الحزن من الناس : من خشنت معاملته .

(١٠) ضعيف . أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير [١/ ١١٨] .

وخافَ أنْ يترقَّى الأمرُ إلَى أكْثرَ مِنْ ذَلِكَ. فكتبَ هَذِهِ وبعثَ بِهَا إِلَى الثَّقَفِيِّ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أَمَّا بعدُ ، فقدْ بلغَنِي ما كانَ مِنْ ذِكْرِ أَبِي الْعَاصِ لنَا، وتَنْوِيهِهِ بأَسْمَائِنَا، وتَشْنِيعِهِ عليْنَا. وليسَ يمنعُنَا مِنْ جَوَابِهِ إلاَّ أَنَّهُ إنْ أجابَنَا لمْ يكُنْ جَوَابُنا إيَّاهُ علَى قولِهِ الثَّانِي، أَحَقَّ بالتَّرْكِ مِنْ جوابِنَا لهُ علَى قولِهِ الأَوَّل. فإنْ نحنُ جعلْنَا لابتدائِهِ جوابًا، وجعلنَا لجوَابِهِ الثَّانِي جَوابًا، خرجْنَا إِلَى التَّهاتُرِ[1] وصِرْنَا إِلَى التَّخَابُرِ[2]. ومَنْ خَرَجَ إِلَى ذَلِكَ فقَدْ رضِيَ باللَّجَاجِ حَظًّا، وبالسُّخْفِ نَصِيبًا .

وليسَ يحْترِسُ مِنْ أسبابِ اللَّجاجِ إلاَّ منْ عَرَفَ أسبابَ البَلْوَى. ومنْ وقَاهُ اللهُ سوءَ التَّكَفِّي[3] وسُخْفَهُ، وعصَمَهُ مِنْ سُوءِ التَّصْمِيمِ ونكَدِهِ، فقدْ اعتدلَتْ طِباعُهُ، وتساوَتْ خواطرُهُ. ومنْ قامَتْ أخلاطُهُ علَى الاعتدالِ، وتكافأَتْ خواطرُهُ في الوزْنِ، لم يَعْرِفْ مِنَ الأعْمَال [إلاَّ] الاقتصادَ، ولم يَجِدْ أفعالَه أبَدًا إلاَّ بيْنَ التقصِيرِ والإفرَاطِ؛ لأَنَّ الموزونَ لا يوَلِّدُ إلاَّ موزونًا، كَمَا أنَّ المختلِفَ لاَ يُوَلِّد إلاَّ مختلِفًا. فالمتتابِعُ لا يَثْنِيهِ زَجْرٌ ، وليستْ له غايةٌ دونَ التلَفِ. والمتكَفِّي ليسَ لهُ مَأْتًى ولا جِهَةٌ، ولا لهُ رُقْية، ولا فيه حِيلَة. وكلُّ متلوِّنٍ في الأرضِ فمنحَلُّ العَقْدِ، مُيَسَّرٌ لكلِّ ريحٍ .

فَدَعْ عنكَ خِلْطَةَ الإمَّعَةِ[4] ، فإنَّه حارصٌ لا خيرَ فيهِ؛ واجتنبْ ركوبَ الجَمُوحِ ذِي النَّزَواتِ، فإنَّ غايتَه القَتْلُ الزُّؤَافُ[5]؛ ولا فِي الحَرُونِ[6] ذي التَّصْمِيمِ. والمتلَوِّنُ شرٌّ منَ المصمِّم، إذْ كنتَ لا تعرفُ له حالًا يقصِدُ إليهَا ، ولا جهةً يعمَل عليهَا. ولذلكَ صارَ العاقلُ يَخْدعُ العاقلَ، ولا يَخْدَعُ الأحمقَ؛ لأنَّ أبْوابَ تدبيرِ العاقِلِ وحِيَلَه معروفةٌ ، وطرُقَ خواطرِهِ مسلوكةٌ ، ومذاهِبَه محصورةٌ معدودةٌ. وليسَ لتدبيرِ الأحمقِ وحِيَلِهِ جِهَةٌ واحدةٌ مَنْ أخطأَهَا كذَبَ. والخبرُ الصادقُ عنِ الشَّيءِ الواحدِ واحدٌ. والخبرُ الكاذبُ عنِ الشيءِ الواحدِ لا يُحْصَى له عَددٌ، ولا يوقَفُ منهُ علَى حدٍّ . والمصمِّمُ قتلُهُ بالإجهازِ، والمتلوِّنُ قتلُه بالتعذيبِ. فإنْ قلنَا ، فليسَ إليه نقصِدُ، وإن احتججْنَا، فلسنَا عليه نرُدُّ . ولكنَّا إليكَ نقصِدُ بالقولِ، وإليكَ نريدُ بالمشورةِ.

وقدْ قالُوا : احفظْ سرَّكَ ، فإنَّ سِرَّكَ منْ دمِكَ . وسواءٌ ذهابُ نفسِكَ ، وذهابُ ما بِهِ يكونُ قِوامُ نَفْسِكَ. قالَ المُنْجَابُ العَنْبَرِيُّ : « ليسَ بِكبيرٍ ما أصلَحَهُ المالُ ». وفَقْد الشيءِ الذِي به تَصْلُحُ الأمورُ أعظمُ منَ الأمورِ. ولهذَا قالُوا في الإبل: « لوْ لمْ يكنْ فيهَا إلاَّ أنَّها رَقُوءُ الدم »[7] - فالشيءُ الذِي هُو ثمنُ الإبلِ وغيرِ الإبلِ أحَقُّ بالصَّوْنِ. وقدْ قَضَوْا بأنَّ حفظَ المالِ أشدُّ منْ جمعِهِ . ولذلِكَ قالَ

---

(١) التهاتر : تهاتر ادعى كل واحد على الآخر باطلاً . (٢) التخابر : التغالب فى العلم والمعرفة .

(٣) سوء التكفى : أى الميل عن جادة الحق والصواب ولم يتشبث برأيه .

(٤) الإمعة : الذى يتابع كل إنسان على رأيه فى الإحسان والإساءة فلا يثبت على رأى .

(٥) الزؤاف : الموت السريع . (٦) الحرون : الدابة تعصى صاحبها فتقف ولا تمشى .

(٧) رقوء الدم : رقأ الدم انقطع جريانه والمعنى أنها تدفع فى الديات فتحقن الدم ولا يقتل القاتل .

الشَّاعرُ :

وحِفْظُكَ مالاً قد عُنِيتَ بجمعِهِ أشدُّ مِنَ الجمعِ الَّذِي أنْتَ طالبُهْ

ولذلكَ قالَ مشتري الأرضِ لبائِعِها، حينَ قالَ لهُ البائِعُ : دفعتُها إليكَ بطيئةَ الإجابَةِ، عظيمةَ المَؤُنَةِ[1]. - قالَ : دفعتُها[2] إليكَ بطيئةَ الاجتماعِ ، سريعةَ التَّفَرُّقِ .

والدِّرهمُ هُو القُطْبُ الَّذِي تدورُ عليه رُحَى الدنْيَا. واعلَم أنَّ التَّخَلُّصَ منْ نَزَواتِ الدِّرْهم وتَقَلُّبِهِ - مِنْ سُكْرِ الغِنَى - وتفَلُّتِهِ شديدٌ. فلو كانَ إذْ تفلَّت، كانَ حارسُه صحيحَ العقلِ ، سليمَ الجوارحِ ، لردَّهُ في عِقالِهِ ، ولشدَّه بِوثَاقٍ. ولكنَّا وجدْنَا ضَعْفَه عنْ ضبطِهِ، بقدرِ قَلَقِهِ في يدِهِ .

ولا تغترَّ بقولِهم : « مالٌ صامتٌ » ؛ فإنَّهُ أنطقُ منْ كلِّ خطيبٍ ، وأنَمُّ منْ كلِّ نمَّامٍ. فلاَ تكترِثْ بقولِهم : « هَذَيْنِ الحجريْنِ »[3] ، فتتوهَّمَ جُمودَهُما وسكونَهُمَا، وقلَّةَ ظَعْنِهِمَا، وطولَ إقامتِهِمَا؛ فإنَّ عملَهُمَا، وهُما ساكِنَانِ، ونَقْضَهُما للطبائعِ ، وهُما ثابتَانِ، أكثرُ منْ صنيعِ السُّمِّ الناقعِ، والسبُعِ العادِي. فإنْ كنتَ لا تكتفِي بصنيعِهِ حتَّى تُمِدَّهُ ، ولا تحتالُ فيه حتَّى يُحتَالَ لهُ، فالقبرُ خيرٌ لكَ مِنَ الفقرِ، والسجنُ خيرٌ لكَ منَ الذُّلِّ .

وقولِي هذا مُرُّه يُعْقِبُ حلاوةَ الأبدِ. فخذْ لنفسكَ بالثقةِ . فقولُكَ الماضِي، حُلْوٌ يُعقبُ مَرارَةَ الأبدِ . فخذْ لنفسكَ بالثقةِ . ولا ترضَ أنْ يكونَ الجِرْباءُ الراكبُ العودِ أحزمَ منكَ؛ فإنَّ الشاعرَ يقولُ :

أنَّى أُتِيحَ لها جِرْباءُ تَنْضُبَةٍ[4] لا يُرْسِلُ السَّاقَ إلاَّ مُمْسِكًا ساقًا[5]

واحذَرْ أنْ تُخرِجَ منْ مالكَ درهمًا، حتَّى ترَى مكانَه خيرًا منهُ.ولا تنظُرْ إلى كثرتِه؛ فإنَّ رملَ عالِجٍ[6] لو أُخِذَ منهُ ولم يُرَدَّ عليه ، لذهبَ عنْ آخرِهِ .

إنَّ القومَ قدْ أكثروا في ذكرِ الجودِ وتفضيلِهِ ، وفي ذكرِ الكرمِ وتشريفِهِ، وسمَّوا السَّرَفَ جودًا، وجعلُوه كرمًا. وكيفَ يكونُ كذلكَ وهو نِتاجُ ما بينَ الضعفِ والنَّفْجِ[7]؟ وكيفَ، والعطاءُ لا يكونُ سَرَفًا إلاَّ بعدَ مجاوزةِ الحقِّ، وليسَ وراءَ الحقِّ إلَى الباطِلِ كرمٌ. وإذَا كانَ الباطلُ كَرَمًا كانَ الحقُّ لؤمًا. والسَّرَفُ - حفظَكَ اللهُ - معصيةٌ . وإذَا كانتْ معصيةُ اللهِ كرمًا، كانتْ طاعتُه لؤمًا. ولئِنْ جمعهُما اسمٌ واحدٌ ، وشمِلَهُما حكمٌ واحدٌ ، (ومضادَّةُ الحقِّ للباطلِ، كمضَادَّةِ الصدقِ للكذبِ،

---

(١) المئونة : أى تحتاج إلى نفقات كثيرة كى تثمر وهذا يأخذ وقتاً كبيراً .

(٢) دفعتها : هذا قول المشترى والمقصود بذلك ثمن الأرض . (٣) الحجران : هما الذهب والفضة .

(٤) تنضبة : التنضب : نبات برّيّ معمّر من الفصيلة الكبرية ، ويقال : كأنه حرباء تنضبة ، أي : داهية .

(٥) البيت غير منسوب في عيون الأخبار [٣/ ٢١٤] ، وهو لأبي دواد الإيادي في اللسان (حرب) يصف ظُعُنًا ساقها، وأزعجها سائقٌ مُجِدٌ . فتَعَجَّب كيف أُتيح لها هذا السائق المُجِدُّ الحازمُ ، وهذا مَثَلٌ يُضربُ للرجل الحازم . وانظر اللسان (تيح ، سوق) .

(٦) رمل عالج . موضع بالبادية رمله كثير . (٧) النَّفْج : المتعاظم المتكبر .

والوفاءِ للغدرِ، والجَوْرِ للعدلِ، والعلْمِ للجهلِ) لَيَجْمَعَنَّ هذِهِ الخصالَ اسمٌ واحدٌ ، ولَيَشْمَلَنَّها حكمٌ واحدٌ .

وقدْ وجدنَا الله عابَ السَّرَفَ، وعابَ الحَمِيَّةَ[1]، وعابَ المعصيةَ . ووجدنَاهُ قدْ خَصَّ السَّرَفَ بمَا لمْ يخُصَّ بهِ الحميَّة؛ لأنَّه لَيْسَ حبُّ المرءِ لِرَهْطِهِ مِنَ المعصيةِ، ولاَ أَنَفَتُه منَ الضَّيْمِ منِ حَمِيَّةِ الجاهليَّةِ. وإنَّما المعصيةُ ما جاوزَ الحقَّ ، والحميَّةُ المَعِيبةُ ما تعدَّى القصدَ. فوجدنَا اسمَ الأُنفةِ قد يقعُ محمودًا ومذمومًا، وما وجدنَا اسمَ المعصيةِ، ولا اسمَ السَّرَفِ يقعُ أبدًا إلاَّ مذمومًا .

وإنَّما يُسَرُّ باسمِ السَّرَفِ جاهلٌ لا علمَ لَهُ ، أو رجلٌ إنَّما يُسَرُّ بهِ ، لأنَّ أحدًا لا يُسمِّيهِ مُسرفًا حتَّى يكونَ عندَهُ قدْ جاوزَ حدَّ الجودِ، وحَكم لهُ بالحقِّ ، ثم أَرْدَفهُ بالباطلِ فإن سُرَّ منْ غيرِ هَذَا الوجهِ، فقدْ شاركَ المادحَ في الخطإِ، وشاكَلَه في وضعِ الشيءِ في غيرِ موضعهِ .

وقدْ أكثرُوا في ذِكْرِ الكرمِ. وما الكرمُ إلاَّ كبعضِ الخِصالِ المحمودةِ التِّي لم يعدَمْها بعضُ الذمِّ. وليسَ شيءٌ يخلو منْ بعضِ النقصِ والوهْنِ. وقدْ زعمَ الأوَّلون أنَّ الكرمَ يسبِّبُ الغَبَا، وأَنَّ الغَبَا يُسبِّب البَلَه[2] ، وأنَّه ليسَ وراءَ البَلَه إلاَّ العَتَه[3] . وقد حَكَوْا عن كِسْرَى أنَّه قالَ :

« احذرُوا صَوْلةَ الكريمِ إذَا جاعَ ، واللَّئِيمِ إذا شبِعَ » - وسواءٌ جاعَ فظَلَم وأَحْفَظ[4] وعسَفَ ، أمْ جاعَ وكذبَ وضَرَعَ وأَسَفَّ[5] . وسواءٌ جاعَ فظلمَ غيرَه، أم جاعَ فظلمَ نفسَه.

والظلمُ لؤمٌ . وإنْ كانَ الظلمُ ليسَ بلؤمٍ، فالإنصافُ ليسَ بكرمٍ. وإنْ كانَ الجودُ علَى مَنْ لا يستحقُّ الجودَ كرمًا ، فالجودُ لمنْ وجَبَ لَه ذلكَ ليسَ بكرمٍ. فالجودُ إذَا كانَ لله كانَ شكرًا له، والشكرُ كرمٌ . ولنْ يكونَ الجودُ - إذا كانَ معصيةً - كرمًا . فكيفَ يتكرَّمُ منْ يتوصَّل بأياديكَ إلَى معصيتِكَ؟ وبنعَمِكَ إلى سُخْطكَ؟ فليسَ الكرمُ إلاَّ الطاعةَ. وليسَ اللؤمُ إلاَّ المعصيةَ، وليسَ بجودٍ ما جاوزَ الحقَّ ، وليسَ بكرمٍ ما خالفَ الشكرَ. ولَئِنْ كانَ مُجاوِزُ الحقِّ كريمًا ، ليكُونَنَّ المُقَصِّرُ دونَه كريمًا .

فإنْ قضيتُم بقولِ العامَّة[6] ، فالعامَّةُ ليستْ بقُدْوَةٍ. وكيفَ يكونُ قدوةً من لا ينظُر ولا يُحصِّلُ، ولا يُفكِّرُ ولا يمثِّلُ ؟ وإنْ قضيتُم بأقاويلِ الشعراءِ، وما كانَ عليه أهلُ الجاهليَّةِ الجَهْلاءِ، فما قبَّحوهُ ممَّا لا يُشَكُّ في حسنِه، أكثرُ منْ أنْ نقفَ عليهِ، أو نتشاغلَ باستقصائِهِ .

علَى أنَّه ليسَ بجودٍ إلاَّ ما أوجبَ[7] الشكرَ، كما أنَّه ليسَ ببخلٍ إلاَّ ما أوجبَ اللؤمَ. ولنْ تكونَ

---

(١) الحمية : الغضب وشدة الأنفة ، وهي من صفات الجاهلية .
(٢) البله : ضعف العقل .
(٣) العته : نقص العقل أو فقده .
(٤) أحفظ : أحفظه : أغضبه .
(٥) أسف : نزل إلى الأمور الدنيئة .
(٦) قول العامة : أنهم يعدون السرف كرما .
(٧) أوجب : أي أوجد وسبب .

العطيَّةُ نعمةٌ علىَ المعطَى ، حتَّى تُراوَدَ بها نفسُ ذلكَ المعطَى. ولنْ يجبَ عليهِ الشكرُ إلاَّ مع شَرِيطةِ القصدِ .

وكلُّ منْ كانَ جودُه يرجعُ إليهِ ، ولولاَ رجوعُه إليهِ لما جادَ عليكَ ، ولو تهيَّأ له ذلكَ المعنَى في سواكَ لمَا قصدَ إليكَ - فإنَّما جعلكَ مِعْبرًا لدَرْكِ حاجتِه، ومَرْكبًا لبُلُوغِ محبَّته. ولولاَ بعضُ القولِ ، لَوَجَبَ لكَ عليهِ حقٌّ يجبُ به الشكرُ. فليسَ يجبُ لمن كانَ كذلكَ شكرٌ، وإنْ انتفعتَ بذلكَ منه، إذ كانَ لنفسهِ عمِلَ، لأنَّه لو تَهَيَّأ لهُ ذلكَ النفعُ في غيركَ، لما تخطَّاه إليكَ .

وإنَّما يُوصفُ بالجودِ في الحقيقةِ ، ويُشكرُ علَى النفْعِ في حجَّةِ العقْلِ - الَّذِي إنْ جادَ عليكَ، فلكَ جادَ، ونَفعَكَ أرادَ، منْ غيرِ أنْ يَرجعَ إليهِ جُودُه بشيءٍ منَ المنافِعِ ، علَى جهَةٍ منَ الجهاتِ ، وهُو اللهُ وحدَه لاَ شريكَ لهُ .

فإنْ شكرنَا للناسِ علَى بعضِ ما قدْ جرَى لنَا على أيديهِم، فإنَّما هُو لأَمرينِ : أَحدُهما التعَبُّدُ، وقدْ نعبدُ اللهَ بتعظيمِ الوالدينِ، وإنْ كانَا شَيْطانَيْنِ، وتعظيمُ منْ هو أَسَنُّ منَّا، وإنْ كنَّا أفضلَ مِنْه. والآخَر، لأنَّ النفسَ ما لَمْ تحصِّل الأُمورَ وتميِّز المعاني، فالسابقُ إليها حبُّ منْ جرَى لهَا على يدِه خيرٌ ، وإن كانَ لم يُرِدْها ، ولم يقصِدْ إليهَا.

ووجدنَا عطيَّةَ الرجلِ لصاحبِهِ لا تخلُو أنْ تكونَ لِله، فثوابُه علَى الله. وكيفَ يجبُ عليَّ في حجَّةِ العقلِ شكرُه، وهُو لو صادفَ ابنَ سبيلٍ غيرِي لمَا حَمَلَني ولا أعطاني؟- وإمَّا أنْ يكونَ إعطاؤُه إيَّايَ للذِّكْرِ[1] . فإذَا كانَ الأمرُ كذلكَ، فإنَّما جعلني سُلَّما إلَى تجارتِهِ، وسببًا إلى بُغْيتِه؛ أو يكونَ إعطاؤُه إيَّايَ مِنْ طريقِ الرحمةِ والرِقَّة، ولِما يجدُ في فؤادِهِ منَ الغُصَّةِ[2] والألَم . فإنْ كانَ لذلكَ أعطَى، فإنَّما داوَى نفسَهُ منْ دائِه، وكانَ كالَّذِي رفَّه منْ خِناقِهِ. وإنْ كانَ إنَّما أعطاني على طلبِ المجازاةِ وحبِّ المكافأةِ، فأمرُ هذَا معروفٌ. وإن كانَ إنَّما أعطاني منْ خوفِ يدِي أو لساني، أو اجْتِرارِ مَعُونتِي ونُصْرَتِي، فسبيلُه سبيلُ جميعِ ما وصفنَا وفَصَّلْنا .

فلاسمِ الجودِ موضعانِ :

أحدُهُما حقيقةٌ ، والآخر مجازٌ . فالحقيقةُ ما كانَ منَ الله، والمجازُ المشتقُّ لهُ منْ هذَا الاسمِ. وما كانَ لِلهِ كانَ ممدُوحًا، وكانَ لِلهِ طاعةً. فإذَا لم تكنْ العطيَّة منَ اللهِ ولا للهِ، فليسَ يجوزُ هذَا فيما سَمَّوْه جُودًا ، فما ظنُّك بما سَمَّوه سَرَفًا؟

افهمْ ما أنَا مُوردُه عليكَ، وواصفُه لكَ : إنَّ التربُّحَ والتكسُّبَ والاستِكَالَ بالخديعَةِ والطُّعَمَ الخبيثةَ فاشيةٌ غالبةٌ ، ومستفِيضةٌ ظاهرةٌ . علَى أنَّ كثيرًا ممنْ يضافُ اليومَ إلَى النزاهةِ والتكرُّمِ، وإلَى

(١) للذكر : أي للصيت والشهرة والمحمدة .

(٢) الغصة : ما اعترض في الحلق من طعام وشراب .

الصيانَةِ والتوقِّي، لَيَأخُذْ منْ ذلكَ بنصيبٍ وافرٍ، وبمُدٍّ[1] وافٍ. فمَا ظنُّك بدَهْماءِ الناسِ[2] وجُمهورِهم؟ بلْ ما ظنُّك بالشعراءِ والخطباءِ الذينَ إنَّما تعلَّموا المنطقَ لصناعةِ التكسُّبِ ؟ وهؤلاءِ قومٌ بودِّهم أنَّ أربابَ الأموالِ قدْ جاوزُوا حدَّ السلامةِ إلَى الغفلةِ، حتَّى لا يكونَ للأموالِ حارسٌ ، ولا دونَها مانعٌ.

فاحذَرْهُم، ولا تنظرْ إلى بِزَّةِ أحدِهم، فإنَّ المسكينَ أقنعُ منهُ. ولا تنظرْ إلَى مرْكبِه، فإنَّ السائلَ أعفُّ منْهُ. واعلَمْ أنَّه في مَسْكِ مِسكينٍ، وإنْ كانَ في ثيابِ جوادٍ، ورُوحَه رُوحُ نَذْلٍ، وإن كانَ في جِرْمِ مَلِكٍ. وكلُّهُم، وإنِ اختلفتْ وجوهُ مسألتِهم، واختلفتْ أقدار مطالبِهم، فهو مِسكينٌ. إلاَّ أنَّ واحدًا يطلبُ العَلِقَ[3]، وآخرَ يطلبُ الخِرَقَ، وآخرَ يطلبُ الدوانيقَ، وآخرَ يطلُبُ الألوفَ. فجهةُ هذَا هيَ جهةُ هذَا، وطُعْمةُ هذا هيَ طُعْمةُ هذا. وإنَّما يختلفُونَ في أقدارِ ما يطلبُونَ، على قدرِ الحِذْقِ والسببِ. فاحذَر رُقاهُم[4] وما نَصَبُوا لكَ منَ الشَّرَكِ، واحرُسْ نعمتَكَ وما دسّوا لهَا منَ الدواهِي. واعملْ علَى أنَّ سحرَهُم يسترِقُ الذِّهنَ. ويختطفُ البصرَ. قالَ رسولُ اللهَ ﷺ : «إنَّ منَ البَيانِ لسِحْرًا»[5] وسمعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رجلًا يتكلَّم في حاجةٍ فقالَ : هذَا واللهِ السحْرُ الحلالُ . وقدْ قالَ رسولُ اللهَ ﷺ : «لا خِلابةَ» - واحذَرْ احتمالَ مديحِهم، فإنَّ محتمِلَ المديحِ في وجهِهِ، كمادحِ نفسِهِ.

إنَّ مالَكَ لا يسَعُ مُريديهِ، ولا يبلغُ رضَا طالبِيهِ. ولو أرضيتَهم بإسخَاطِ مِثْلِهم، لكانَ ذلكَ خُسرانًا مبينًا. فكيفَ وَمَنْ يسخَطُ أضعافُ مَنْ يرضَى؟ وهِجاءُ الساخِطِ أضرُّ منْ فَقْدِ مديحِ الراضِي. وعَلَى أنَّهم إذَا اعتَوَرُوكَ بمشاقِصِهم، وتداولُوكَ بسهامِهم، لم ترَ ممَّن أرضيتَه بإسخاطِهم أحدًا يناضِلُ عنكَ، ولا يُهاجِي شاعرًا دونَكَ. بلْ يخلِّيكَ غَرَضًا لسهامِهم، ودَرِيئةً لنِبالِهم. ثُم يقولُ : وما كانَ عليه لوْ أرضَاهُم! فكيفَ يُرضيهِم ورضَا الجميعِ شيءٌ لا يُنالُ؟ وقدْ قالَ الأَولُ : وكيفَ يتَّفقُ رضَا المختلِفينَ؟ وقالُوا : مَنْعُ الجميعِ أرْضَى للجميعِ .

إنِّي أحذِّركَ مَصارِعَ المخدُوعينَ، وأرفعُك عنْ مضاجعِ المغبونينَ. إنَّك [لستَ] كمنْ لم يزلْ يقاسِي تعذُّرَ الأُمورِ، ويتجرَّعُ مرارةَ العيشِ، ويتحمَّلُ ثِقَلَ الكَدِّ، ويشرَبُ بكأسِ الذُّلِّ، حتَّى كانَ يمرُنُ على ذلكَ جِلْدُه، ويسْكُنُ عليهِ قلبُه. وفقرُ مثلكَ مضاعَفُ الألَمِ ، وجَزعُ مَن لم يعرفْ الألَمَ أشدُّ. ومَنْ لمْ يزلْ فقيرًا لهوَ لا يعرفُ الشامِتينَ، ولا يدخلُه المكروهُ منْ سرورِ الحاسدينَ، ولا يُلامُ

---

(١) بمُدّ : المدّ مكيال مقداره رطل وثلث .
(٢) دهماء الناس : جماعتهم والسواد الأعظم .
(٣) العلق : النفيس الغالي من كل شيء .
(٤) رقاهم : جمع رقية وهي كلمات تقرأ للمحموم والمصروع ليشفى بزعمهم .
(٥) أخرجه البخاري في النكاح . باب الخطبة [٩/١٠٩] وفي موضع آخر . ومسلم في الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة [٤٧] وأبو داود والترمذي والدارمي ومالك وأحمد .

على فقرِه، ولا يصيرُ موعظةً لغيرِه، وحديثًا يبقَى ذِكْرُه، ويلعَنُه بعدَ المماتِ وُلْدُه .

ودعْنِي منْ حكاياتِ المستأكِلينَ، ورُقَى الخادعينَ؛ فما زالَ الناسُ يحفظونَ أموالَهم منْ مواقعِ السَّرَفِ، ويخبّئونَها منْ وجوهِ التبْذيرِ. ودعْنِي ممَّا لا نراهُ إلاَّ في الأشعارِ المتكلَّفةِ، والأخبارِ المولَّدةِ ، والكتبِ الموضوعةِ[1] . فقدْ قالَ بعضُ أهلِ زماننا: ذهبتِ المكارِمُ إلاَّ منَ الكتبِ!

فخذْ فيمَا تعلمُ، ودَعْ نفسَكَ ممَّا لا تعلمُ. هلْ رأيتَ أحدًا قطُّ أنفقَ مالَهُ على قومٍ كانَ غناهُم سببَ فقرِهِ، أنَّه سلَّم عليهم حينَ افتقرَ، (فردُّوا عليه) - فضلًا علَى غيرِ ذلكَ؟ أوَلستَ قد رأيتَهم بين مُحمِّقٍ[2] ، ومحتجِبٍ عنهُ، وبينَ منْ يقولُ : فهلاَّ أنزلَ حاجتَه بفلانٍ الذي كان يُفَضِّلُه ويُقدِّمه ويُؤْثِرُه ويَخُصُّه؟- ثم لعلَّ بعضَهم أنْ يتجنَّى عليه ذنوبًا، ليجعَلها عذرًا في منعِهِ، وسببًا إلى حِرْمانِه. قال الله جلَّ ذِكرُه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[3] .

فأنَّا القائمُ عليكَ بالموعظةِ والزَّجْرِ، والأمرِ والنهْيِ؛ وأنتَ سالمُ العقلِ والعِرْضِ، وافرُ المالِ، حَسَنُ الحالِ. فاتَّقِ أنْ أقومَ غدًا علَى رأسكَ بالتقريعِ والتعييرِ، والتوبيخِ والتأنيبِ، وأنتَ عليلُ القلبِ، مُخْتَلُّ العِرْضِ. عديمٌ منَ المالِ، سيِّئُ الحالِ .

ليسَ جُهْدُ البلاءِ مدَّ الأعناقِ ، وانتظارَ وَقْعِ السيوفِ ، لأنَّ الوقتَ قصيرٌ ، والحسَّ مغمورٌ. ولكنَّ جُهْدَ البلاءِ أن تَظهرَ الخَلَّةُ، وتطولَ المدَّةُ، وتعجزَ الحيلةُ؛ ثم لا تَعْدَمَ صديقًا مؤنِّبًا ، وابنَ عمٍّ شامتًا، وجارًا حاسِرًا، ووليًّا قدْ تحوَّلَ عدوًّا، وزوجةً مُخْتَلِعة[4]، وجاريةً مُستبِيعةً[5]، وعبدًا يحقِرُكَ ، وولدًا ينتهرُكَ .

فانظرْ أَيْنَ موقِعُ فَوْتِ الثناءِ ، منْ موقعِ ما عَدَدْنا عليكَ منَ البلاءِ؟ على أنَّ الثناءَ طُعَمٌ، ولعلَّك ألاَّ تُطْعَمهُ ، والحمدَ أرزَاقٌ ، ولعلَّك ألاَّ تُحرَمهُ .

وما يَضيعُ منْ إحسانِ الناسِ أكثرُ. وعلى أنَّ الحِفْظَ قد ذهبَ بموتِ أهلِهِ . ألاَ ترَى أنَّ الشِّعْرَ لمَّا كَسَدَ أُفْحِمَ أهلُه، ولمَّا دخلَ النقصُ علَى كلِّ شيءٍ أخذَ الشِّعْرُ منهُ بنصيبِهِ، ولمَّا تحوَّلتِ الدولةُ في العجمِ[6] - والعَجَمُ لا تحوطُ الأنسابَ[7]، ولا تحفَظُ المقاماتِ - لأنَّ منْ كانَ في الرِّيفِ والكفايةِ، وكانَ مغمورًا بِسُكْرِ الغِنَى، كثُرَ نسيانُهُ، وقلَّتْ خواطرُه. ومنْ احتاجَ تحرَّكتْ همَّتُه ، وكثُرَ تنقيرُهُ .

---

(١) الكتب الموضوعة : أي التي وضعت لهذا الغرض .
(٢) مُحمِّق : ناسب له إلى الحمق .
(٣) [القلم : ٤٢ - ٤٣] .
(٤) مختلعة : هي التي دفعت إلى زوجها مالاً فطلقها .
(٥) مستبيعة : هي التي سألت سيدها أن يبيعها .
(٦) تحولت في العجم : أي ازداد الانحطاط . يعني جواب لمَّا محذوف .
(٧) لا تحوط الأنساب : لا تهتم بحفظ أنسابها ولا بأن تمتدح بأصولها كما يفعل العرب .

وعَيْبُ الغِنَى أنَّه يورِّثُ البلادةَ ، وفضيلةُ الفقرِ أنَّه يبعثُ الفِكْر. وإنْ أنتَ صحبتَ الغنَى بإهمالِ النفسِ، أسكرَكَ الغنَى. وسُكْرُ الغِنَى سُبَّةُ المستأكلينَ، وتُهَمَةُ الخدَّاعين. وإنْ كنتَ لا ترضَى بحظِّ النائِم، وبعيشِ البهائم، وأحببتَ أنْ تجمعَ معَ تمامِ نفسِ المثرِي، ومعَ عزِّ الغِنَى وسرورِ القدرةِ، فِطنةَ المُخِفِّ، وخواطرَ المُقِلِّ، ومعرفةَ الهاربِ، واستدلالَ الطالبِ - اقتصدتَ في الإنفاقِ، وكنتَ مُعِدًّا للحَدَثانِ، ومحترِسًا منْ كلِّ خِداعٍ .

لستَ تبلُغُ حِيَلَ لصوصِ النهارِ، وحِيلَ سُرّاقِ الليلِ، وحِيلَ طُرّاقِ البُلْدَانِ، وحِيلَ أصحابِ الكِيمياءِ، وحيلَ التُّجّارِ في الأسواقِ، والصنّاعِ في جميعِ الصناعاتِ، وحيلَ أصحابِ الحروبِ، وحِيلَ المستأكِلينَ والمتكسِّبينَ.

ولوْ جمعتَ الخُبْرَ والسِّحْرَ والتمائمَ[1] والسُّمَّ، لكانتْ حِيلُهم في الناسِ أشدَّ تغلغلًا، وأعْرَضَ، وأسرَى في عُمقِ البدنِ، وأدخلَ إلَى سُوَيداءِ القلبِ، وإلَى أُمِّ الدِّماغِ، وإلَى صَمِيمِ الكبدِ .

ولَهِيَ أدقُّ مَسلَكًا ، وأبعدُ غايةً من العِرْقِ الساري ، والشَّبَهِ النازع، ولو اتّخذتَ الحيطانَ الرفيعةَ الثخينةَ، والأقفالَ المحْكَمَةَ الوثيقةَ؛ ولو اتخذتَ الممَارِقَ والجَواسِقَ[2]، والأبوابَ الشِّدادَ، والحَرَس المتناوِبينَ بأغلظِ المُؤَنِ، وأشدِّ الكُلَفِ، وتركتَ التقدُّمَ فيما هو أحْضَرُ ضررًا وأدْومُ شرًّا ، ولا غُرْمَ عليكَ في الحراسةِ فيه ، ولا مَشَقَّةَ عليكَ في التحفُّظِ منه .

إنَّكَ إنْ فتحتَ لهمُ علَى نفسكَ مِثْلَ سَمِّ الخِياطِ جعلُوا فيهِ طريقًا نَهْجًا، ولُقًى رحبًا. فأَحْكِمْ بابَكَ، بلْ أدِمْ إصْفاقَه[3] ، فهوَ أولَى بكَ. بلْ إنْ قدَرْتَ على مُصْمَتٍ لا حيلةَ فيه، فذلكَ أشبهُ بحزمكَ .

ولوْ جعلتَ البابَ مُبْهَمًا والقُفْلَ مُصْمَتًا ، لتسوَّرُوا عليكَ منْ فوقكَ . ولو رفعتَ سَمْكَهُ إلَى العَيُّوقِ[4] ، لنقَبُوا عليكَ منْ تحتكَ . قالَ أبو الدَّرْداءِ: نِعْمَ صَوْمعةُ المؤمنِ بيتُهُ. وقال ابنُ سِيرينَ : « العُزلةُ عبادةٌ » .

وحلاَوةُ حديثِهم تدعُو إلَى الاستكثارِ منهُم، وتدعُو إلَى إحضارِ غرائبِ شهواتِهم. فمنْ ذلكَ قولُ بعضِهم لبعضِ أصحابِه: كُلْ رِخْلَةً[5] ، واشرَبْ مِشْعلًا، ثم تَجَشَّأْ واحدةً ، لو أنَّ عليها رحًى لطَحنتْ !

ومنْ ذلكَ قولُ الآخَرِ، حينَ دخلَ على قَومٍ وهمُ يشربُونَ ، وعندهُم قِيانٌ ، فقالُوا: اقترِحْ أيَّ صوتٍ شئتَ ، قال : أَقترِحُ نَشِيشَ مِقْلًى !

---

(١) التمائم : جمع تميمة ، وهي خرزة أو نحوها تعلق على الإنسان في دفع الشر كما يزعمون .

(٢) الجواسق : جمع جوسق ، وهو الحصن . (٣) إصفاقه : رده بعد أن كان مفتوحًا .

(٤) العيوق : نجم . يعني أنهم لن يتركوك ، ولو ذهبت إلى هذا النجم . (٥) الرخلة : الأنثى من أولاد الضأن .

ومنْ ذلكَ قولُ المَدِينيِّ : منْ تصبَّحَ بسبعِ مَوْزاتٍ، وبقدَحٍ منْ لبنِ الأَوارِكِ[1]، تجشَّأَ بَخُورَ الكعبةِ .

ومنْ ذلكَ قولُهم لبعضِ هؤلاءِ وقدَّامَهم خَبِيصٌ : أيُّما أطيبُ ؟ هذَا أو الفَالُوذَج أو اللَّوْزِينَج؟ قالَ : لا أقضِي علَى غائبٍ .

ومنْ ذلكَ كلامُ الجارُودِ بنِ أبي سَبْرة، لِبلالِ بنِ أبي بُرْدةَ ، حينَ قالَ له : صِفْ لي عبدَ الأعلَى وطعامَه. قالَ : يأتيهِ الخبَّازُ فيمثُل بينَ يديهِ ، فيقولُ : ما عندكَ؟ فيقولُ: عندِي جَدْيٌ كذَا، وعَناقٌ كذا، وبطَّةٌ كذا - حتَّى يأتيَ على جميعِ ما عندهُ. قالَ : وما يدعُوه إلَى هذا؟ قالَ : ليقتصرَ كلُّ امرئٍ في الأكلِ حتَّى إذَا أتيَ بالذي يشتَهِي ، بلغَ منه حاجتَهُ . قال : ثُم ماذَا؟ قالَ : ثم يُؤْتَى بالمائدةِ فيتضايقونَ، حتَّى يُخَوِّى تخويةَ الظلِيم[2] . فَيجِدُّونَ ويهزِل؛ حتَّى إذَا فتَروا أكلَ أكْلَ الجائعِ المَقْرُورِ[3].

وقال آخرُ : أَشتهِي ثريدةً دَكْناءَ منَ الفُلْفُلِ، ورَقْطاءَ منَ الحِمَّصِ ، ذاتَ جفافيْن منَ اللَّحمِ، لهَا جناحَانِ منَ العُراقِ، أضْرِبُ فيهَا ضَرْبَ اليتيمِ عندَ وصيِّ السُّوءِ !

وسُئِلَ بعضُهُم عنْ حُظوظِ البُلْدانِ في الطعامِ ، وما قُسِمَ لكلِّ قومٍ منهُ ، فقالَ : ذهبتِ الرومُ بالجُشَمِ والحَشْوِ ، وذهبتْ فارسٌ بالباردِ والحُلوِ. وقالَ عُمرُ : لفارسِ الشُّفارِجُ[4] والحُموضُ . فقالَ دَوْسَرٌ المَدِيني : لنَا الهَرائسُ والقَلاَيَا ، ولأهلِ البَذْوِ اللِّبَأُ والسِّلاءُ، والجرادُ والكَمْأَةُ، والخُبْزة في الرائبِ ، والتمرُ بالزُّبْدِ .

وقدْ قالَ الشاعرُ :

ألاَ ليتَ خُبزًا قَدْ تَسَرْبَلَ رائبًا وخَيْلًا منَ البَرْنيِّ فُرْسانُها الزُّبْدُ[5]

ولهم البُرْمةُ والخُلاصةُ والحَيْسُ والوطِيئةُ[6] .

وقالَ أَعرابيٌّ : أتِينَا بِبُرٍّ كأَفواهِ البُعْرانِ[7] ، فخبزنَا منْهُ خُبْزَةَ زيتٍ في النَّارِ ، فجعلَ الجَمْر يتحدَّرُ عنَها تحدُّرَ الحشْوِ عنِ البِطانِ[8] . ثم ثَرَدْناهَا، فجعلَ الثريدُ يجولُ في الإهالةِ[9] جَوَلانَ الضِّبْعان

---

(١) لبن الأوارك : الإبل التي اعتادت أن تأكل من شجر الأراك تلك الشجرة الطويلة الخضراء الناعمة كثيرة الورق والأغصان يؤخذ منها السواك .

(٢) الظليم : ذكر النعام . (٣) المقرور : الذي أصابه القر ، وهو البرد .

(٤) الشُّفارج : الطبق فيه الفيخات والسكرجات .

(٥) في عيون الأخبار [٣/ ٢٢٤] لبعض الأعراب ، ورواية الشطر الأول :

∴ ألا ليت لي خُبزًا تَسَرْبَلَ رائبًا ∴

(٦) الوطيئة : تمر يخرج نواه ويعجن باللبن .

(٧) البُعْران : مفردها بعير ، وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل وذلك إذا استكمل أربع سنوات ، والمقصود تشبيه البر في بياضه بأفواهها لما عليها من رغوة وزبد .

(٨) البطان : حزام قتب البعير . (٩) الإهالة : الشحم المذاب .

في الضَّفِرَةِ[1] . ثم أُتِينَا بتمرٍ كأعيانِ الورْلانِ[2] ، يَوْحَل فيهِ الضرْسُ .

ونُعِتَ السَّويقُ بأنَّه منْ عُدَدِ المسافِرِ ، وطعامُ العَجْلانِ، وغِذاءُ المبَكِّرِ، وبُلْغَةُ المريضِ. يشدُّ فؤادَ الحزِينِ، ويرُدُّ مِنْ نَفْسِ المحدُودِ . وحيدٌ في السمينِ، ومنعوتٌ في الطيِّب . قَفَارُه يجلُو البلغم، ومَسْمُونُه يصَفِّي الدمَ، إن شئتَ كانَ ثريدًا ، وإنْ شئتَ كانَ خَبيصًا ، وإنْ شئتَ كانَ طعامًا ، وإن شئتَ كان شَرابًا .

وقيلَ لبعضِ هؤلاَءِ اللّعامِظةِ[3] والمستأكِلينَ والسفَّافِينَ المقفَّعينَ، ورُئِيَ سَمينًا: ما أسْمَنَك؟ قالَ : أكْلِي الحارَّ، وشربِي القارَّ ، والاتِّكاءُ على شِمالِي، وأكلِي من غيرِ مالِي.

وقدْ قالَ الشَّاعرُ :

وإنَّ امتلاءَ البطنِ في حَسَبِ الفتَى قليلُ الغَنَاءِ وَهْوَ في الجِسْم صالحُ

وقيلَ لآخرَ : ما أَسْمَنَكَ؟ قالَ : قلَّةُ الفِكرةِ ، وطولُ الدَّعةِ، والنومُ علَى الكِظَّةِ .

وقالَ الحجَّاجُ للغضبانِ بنِ القَبعْثَرِيِّ : ما أسْمَنَك؟ قالَ : القيدُ والرَّتْعةُ[4]. ومنْ كانَ في ضيافةِ الأَميرِ سَمِنَ .

وقيلَ لآخَرَ : إنَّك لحَسَنُ السِّمْنةِ . قالَ : آكُلُ لُبابَ البُرِّ ، وصِغارَ المَعْزِ، وأَدَّهِنُ بِخَامِ[5] البَنَفْسَجِ، وألبَسُ الكَتَّانَ .

واللهِ لو كانَ مَنْ يُسْأَلُ يُعطِي ، لمَا قامَ كرمُ العطيَّةِ بلؤمِ المسألةِ . ومَدارُ الصوابِ علَى طِيبِ المكْسِبَةِ، والاقتصادِ في النفقةِ . وقدْ قالَ بعضُ العربِ : اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منْ بعضِ الرزقِ ، حينَ رأَى نافجَةً منْ مالِهِ منْ صَداقِ أُمِّهِ .

وأيُّ سائلٍ كانَ ألحفَ مسألةً منَ الحُطَيْئةِ وألأَمَ؟ ومَنْ ألأَمُ من جَريرِ بنِ الخَطَفَى وأبْخلُ؟ ومَنْ أَمنعُ منْ كُثَيِّرٍ[6]؟ وأشَحُّ من ابنِ هَرْمةَ؟ ومنْ كانَ يَشُقُّ غُبَارَ ابنِ أبي حَفْصَةَ؟ ومَنْ كانَ يصْطَلِي بنارِ أبِي العتاهيَةِ[7]؟ ومَنْ كأَبِي نُواسٍ في بخلِه؟ أو كان كأبي يعقوبَ الخُرَيميِّ في دِقَّة نظرِهِ وكَثْرةِ كسْبِهِ؟ ومن كانَ أكثرَ نَحْرًا لجَزَرَةٍ لم تُخلَق من ابنِ هَرْمةَ، وأطعنَ برُمْحٍ لم ينبُتْ ، وأطعمَ لطعامٍ لم

---

(١) الضفرة : ما عظم من الرمل وتجمع .

(٢) الورلان : مفردها الورل ، وهو حيوان من الزحافات طويل الأنف والذنب دقيق الخصر . لا عقد في ذنبه كذنب الضب . أطول من الضب وأقصر من التمساح .

(٣) اللعامظة : جمع لعمظ ، وهو النَّهِمُ ، والمتطفل .

(٤) الرتعة : الاتساع في الخصب .

(٥) الخام : الريح الطيبة تعبق بالثوب .

(٦) هو كُثَير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي شاعر من الحجاز ، كان يحب عزة بنت جميل ، وله معها أخبار كثيرة مع حب عفيف ، توفي سنة ١٠٥ هـ .

(٧) إسماعيل بن القاسم بن سُويد العيني العَنَزي أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية : شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم بالمائة والمائة والخمسين بيتًا في اليوم. يعد من مقدمي المولدين من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما . له شعر في الزهد. راجع الأعلام [١/ ٣٢١] .

يُزْرَعْ منَ الخُرَيْميِّ؟ فأينَ أنتَ عن ابنِ يسيرٍ؟ وأينَ تذهبُ عن ابنِ أبي كَرِيمةَ؟ ولِمَ تُقَصِّرُ في ذكرِ الرَّقَاشِيِّ، ولم تذكرْ سِرَّه؟

إنَّ الأعرابيَّ شرٌّ من الحاضرِ، سائلٌ جبَّارٌ، وثَّابةٌ ملأَّقٌ[1]، إن مدَح كذَبَ، وإن هجَا كذبَ، وإن سَبَّ كذبَ، وإن طمِع كذبَ. لا يعرفُه إلاَّ نَطِفٌ[2] أو أحمقُ، ولا يعطيه إلاَّ من يُحبُّه، ولا يحبُّه إلاَّ من هُو في طباعِهِ.

ما أَبطأَكُم عنِ البذلِ في الحقِّ! وأَسرَعَكُم إلى البذْلِ في الباطِلِ! فإنْ كنتم الشعراءَ تُفضَّلونَ، وإلى قولِهم ترجعُونَ، فقدْ قالَ الشاعرُ:

قليلُ المالِ تُصْلِحُه فَيَبْقَى ... ولا يَبْقَى الكثيرُ على الفسادِ[3]

وقدْ قالَ الشمّاخُ بنُ ضِرَارٍ[4]:

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فَيُغْنِي ... مَفَاقِرَهُ أعفُّ مِنَ القُنُوعِ[5]

وقال أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاحِ[6]:

استغْنِ أَوْ مُتْ ولا يَغْرُرْكَ ذو نَشَبٍ ... مِن ابنِ عمٍّ ولا عمٍّ ولا خالِ
إنِّي أُكِبُّ على الزَّوْراءِ أَعْمُرُها ... إنَّ الكريمَ على الأقوامِ ذو المالِ[7]

وقالَ أيضًا:

استغْنِ عن كلِّ ذِي قُرْبَى وذي رَحِمٍ ... إنَّ الغَنِيَّ مَنِ استغنَى عنِ النَّاسِ
والبَسْ عدوَّك في رِفقٍ وفي دَعَةٍ ... لِباسَ ذي إبْرَةٍ للدَّهْرِ لَبَّاسِ
ولا يَغُرَّنْك أضغانٌ مُزَمَّلَةٌ ... قدْ يُضْرَبُ الدَّبِرُ الدَّامِي بأَخْلاسِ[8]

وقال سهلُ بنُ هارونَ:

إذَا امرؤٌ ضاقَ عنِّي لم يَضِقْ خُلُقِي ... منْ أنْ يرانِي غنيًّا عنهُ بِالْيَاسِ
فلاَ يرانِي إذَا لم يَرعَ آصرتِي ... مستمرِيا دِرَرًا منهُ بإبْساسِ

---

(١) ملاق: يظهر الود واللطف. (٢) نَطِف: نطف الرجل: اتهم بريبة.

(٣) البيت للمتلمس في ديوانه [١٧٣]، وروايته:

وإصلاحُ القليلِ يَزيد فيه ... ولا يَبْقَى الكثيرُ مع الفَسادِ

(٤) الشماخ بن ضرار بن حرملة بن صيفي بن إياس بن عبد بن عثمان بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. الإصابة [٣٩١٣].

(٥) ديوانه [٢٢١].

(٦) أُحَيْحَة بن الجُلاَح بن الحريش الأوسي، أبو عمرو: شاعر جاهلي من دهاة العرب وشجعانهم. قال الميداني: كان سيد يثرب (المدينة) وكان له حصن فيها سماه «المستظل» وحصن في ظاهرها سماه «الضحيان» ومزارع وبساتين ومال وفير. وقال البغدادي: كان سيّد الأوس في الجاهلية. وكان مرابيًا كثير المال. الأعلام [١/ ٢٧٧].

(٧) البيان والتبيين لأحيحة [٢/ ٣٦١]، وعيون الأخبار [١/ ٣٤٦].

(٨) البيان والتبيين لأحيحة [٢/ ٣٦١].

لا أطلُبُ المالَ كيْ أَغنَى بفَضْلتِهِ ... ما كانَ مطلبُه فقرًا إلَى النَّاسِ

وقالَ أبو العتاهيَةَ :

أنتَ ما استغنيتَ عنْ صا ... حِبِكَ الدهرَ أخوهُ
فإذَا احتجتَ إليهِ ... ساعةً مَجَّكَ فُوهُ[1]

وقال أحَيْحَة بنُ الجُلاحِ :

فلَوْ أنّي أشاءُ نعِمتُ بالًا ... وباكَرَنِي صَبُوحٌ أو نَشيلُ[2]
ولاعَبَنِي علَى الأنماطِ لُعْسٌ ... علَى أنْيابِهِنَّ الزنجبيلُ
ولكنِّي خُلِقْتُ إزاءَ مالٍ ... فأَبخلُ بعدَ ذلكَ أو أنيلُ

وقالَ آخرُ :

أبَا مُصلِحٍ أَصْلِحْ ولاتَكُ مُفسدًا ... فإنَّ صلاحَ المالِ خيرٌ منَ الفقْرِ
ألم تَرَ أنَّ المرءَ يزدادُ عِزَّةً ... على قَوْمِهِ أنْ يعلَموا أنَّه مُثْرِي؟[3]

وقال عُرْوةُ بنُ الوَرْدِ[4] :

ذَرِينِي للغِنَى أسْعَى فإنّي ... رأيتُ الناسَ شرُّهُم الفقِيرُ
وأُبْعَدُهُم وأَهْوَنُهُمْ عليهِمْ ... وإنْ أمسَى لهُ نَسَبٌ وَخِيرُ
ويُقْصَى في النَّدِيِّ وتَزْدَرِيهِ ... حَلِيلتُهُ ويَنْهَرُه الصَّغيرُ
وتَلْقَى ذَا الغِنَى ولهُ جَلالٌ ... يَكادُ فؤادُ صاحبِهِ يطيرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُه والذَّنْبُ جَمٌّ ... ولكنَّ الغِنَى رَبٌّ غَفُورُ[5]

وقال سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ[6] :

تِلكَ عِرْسايَ تَنْطِقَانِ عَلَى عَمْـ ... ـدٍ لِيَ اليومَ قولَ زُورٍ وهُجْرِ[7]
سالَتَانِي الطلاقَ أنْ رَأَتَا ما ... لِي قليلًا قد جئتمانِي بنُكْرِ
فَلَعَلِّي أنْ يكثُرَ المالُ عنْدِي ... ويُعَرَّى مِنَ المَغارِمِ ظَهْرِي
وَيُرَى أعْبُدٌ لنَا وأَواقٍ ... ومناصيفُ منْ خوادمَ عَشْرِ

---

(١) عيون الأخبار [٣/ ٢١٧] ، والبيان والتبيين [٢/ ٧٦] .

(٢) النشيل : اللحم الذي طبخ بغير توابل . (٣) عيون الأخبار [١/ ٣٤٨] .

(٤) عروة بن الورد بن زيد بن عمرو، من بني عبس . من شعراء الجاهلية . جواد فارس شجاع . توفى نحو سنة ٣٠ ق .هـ .

(٥) عيون الأخبار [١/ ٣٤٨] ، والبيان والتبيين [١/ ٢٣٤] .

(٦) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدويّ القرشي، أبو الأعور : صحابيّ ، من خيارهم. هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها إلا بدرًا وكان غائبًا في مهمة أرسله بها النبي ﷺ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. وكان من ذوي الرأي والبسالة . وشهد اليرموك وحصار دمشق ، وولاه أبو عبيدة دمشق . الأعلام [٣/ ٩٤] .

(٧) الهُجْر : تمزيق العِرض . والهِجْر بكسر الهاء معناه الكذب والسقط من الكلام .

وَتُـجَـرُّ الأذيـالُ فـي نـعـمـةٍ زَوْ ... لٍ ، تـقـولاَنِ : ضَـعْ عَـصـاكَ لِـدَهْـرِ
وَىٰ كـأَنْ مـنْ يـكـنْ لـه نَـشَـبٌ يُـحْـ ... ـبَبْ، ومَـنْ يَـفْـتَـقِـرْ يَـعِـشْ عَـيْـشَ ضُـرِّ
ويُـجَـنَّـبْ سِـرَّ الـنَّـجِـيِّ ولـكـنَّ ... أَخَـا الـفـقْـرِ مُـخْـضَـرٌّ كـلُّ شَـرِّ[1]

وقالَ الآخرُ :

ولـلْـمَـالِ مِـنِّـي جـانـبٌ لا أُضـيـعُـه ... ولـلَّـهْـوِ مـنِّـي والـبَـطـالـةِ جـانـبُ

وقال الأَخْنسُ بنُ شِهابٍ :

وقَـدْ عِـشْـتُ دَهْـرًا والـغُـواةُ صَـحابتي ... أُولـئـكَ إِخْـوانِـي الَّـذيـنَ أُصـاحِـبُ
فَـأَدَّيْـتُ عـنِّـي مـا اسْـتَـعَـرْتُ مـن الـصِّـبـا ... ولـلـمـالِ مـنِّـي الـيـومَ راعٍ وكـاسـبُ[2]

وقالَ ابنُ أَذَيْنةَ الثَّقَفِيُّ :

أَطَـعْـتُ الـعِـرْسَ فـي الـشَّـهـواتِ حـتَّـى ... أعـادتْـنِـي عَـسِـيـفًـا عـبـدَ عـبْـدِ[3]
إِذَا مـا جـئـتُـهـا قَـدْ بـعـتُ عِـتْـقًـا ... تُـعـانِـقُ أو تُـقَـبِّـلُ أو تُـفَـدِّي[4]
فـمـنْ وَجـد الـغِـنَـى فـلـيـصـطَـنِـعْـهُ ... ذخـيـرتَـه ويَـجْـهَـدْ كـلَّ جَـهْـدِ

وقالَ :

مـنْ يـجـمـعِ الـمـالَ ولا يُـثَـبِّـهِ ... ويـتـركِ الـعـامَ لـعـامِ جَـذْبِـهِ
يَـهُـنْ عَـلَـى الـنـاسِ هـوانَ كـلـبِـهِ[5]

وقد قيلَ في المثلِ : الكَدُّ قبل المدِّ ، وقالَ لَقِيطٌ : الغزوُ أدرٌ لِلْقاحِ،[6] وأَحَدّ للسلاحِ.

وقالَ أبو المعافَى :

وإنَّ الـتـوانِـي أنْـكَـح الـعُـجْـزَ بِـنْـتَـهُ ... وسـاق إلـيـهـا حـيـنَ زَوَّجَـهـا مَـهْـرَا
فِـراشًـا وَطِـيـئًـا ، ثـم قـالَ لـهَـا : اتَّـكِـي ... فَـقَـصْـرُكُـما - لا بُـدَّ - أنْ تَـلِـدَا الـفَـقْـرَا[7]

وقالَ عثمانُ بنُ أبِي العاصِ[8] : ساعةٌ لدنياكَ ، وساعةٌ لآخرتِكَ . وقال رسولُ الله ﷺ : « أنهاكُم عنْ قيلَ وقالَ ، وكثرةِ السؤالِ ، وإضاعةِ المالِ » . وقالَ : « خَيْرُ الصَّدقةِ ما أبقى غِنًى ،

---

(١) الأبيات تروى لسعيد ، ولزيد والده ، ولنبيه بن الحجاج ، انظر البيان والتبيين [١/ ٢٣٥] وهامشه .
(٢) البيتان من قصيدة له في المفضليات [٢٠٤، ق : ٤١] . (٣) عسيفًا : الأجير المستهان به .
(٤) عيون الأخبار [١/ ٣٤٩، ٣٥٠] برواية « عَذْقًا » بدلا من « عِتْقا » .
(٥) عيون الأخبار [١/ ٣٥٠] ، والحيوان [١/ ٢٥٤] .
(٦) اللقاح : الناقة الحلوب ، وأدر معناه : أكثر إدرارا للبن بسبب الغنائم .
(٧) عيون الأخبار [١/ ٣٥١] ورواية الشطر الثاني : ∴ قصاراهما لا بد أن يلدا الفقرا ∴.
(٨) عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد بن دهمان ، من ثقيف : صحابي ، من أهل الطائف . أسلم في وفد ثقيف ، فاستعمله النبي (على الطائف ، فبقي في عمله إلى أيام عمر ثم ولاه عمر « عُمان » و« البحرين » سنة ١٥ هـ . له فتوح وغزوات بالهند وفارس . الأعلام [٤/ ٢٠٧] .

واليدُ العُلْيَا خيرٌ منَ اليدِ السُّفْلَى، وابدأْ بِمَنْ تعولُ »[1]. وقال النبيُّ ﷺ: « الثُّلُثَ. والثُّلُثُ كثيرٌ ؛ إنَّك إنْ تَدَعْ ولَدَك أغنياءَ، خَيْرٌ منْ أنْ يتكفَّفُوا الناسَ »[2] . وقالَ ابنُ عبَّاسٍ : وددْتُ أنَّ الناسَ غضُّوا من الثُّلُث شيئًا ، لقول النبيِّ (عليه السلام) : « الثُّلُثَ. والثُّلُثُ كثيرٌ » . وقال النبيُّ ﷺ : « كفَى بالمرءِ إثْمًا أنْ يُضَيِّعَ من يَقُوتُ »[3] .

وأنتُم تَرَوْن أنَّ المجدَ والكَرَمَ أنْ أُفْقِرَ نفسِي بإغناءِ غيْرِي ، وأنْ أحُوط عيالَ غيرِي بإضاعةِ عِيالِي!

وقالَ في ذلكَ ابنُ هَرْمَةَ :

كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا بالعَرَاءِ ومُلْبِسَةٍ بَيْضَ أخرَى جَنَاحَا

وقالَ آخرُ :

كَمُفْسِدِ أَذْنَاهُ ومُصْلِحِ غيرِهِ ولم يأتَمِرْ فِي ذاكَ أَمْرَ صَلاحِ

وقالَ الآخرُ :

كمرضعةٍ أولادَ أخرَى وضَيَّعتْ بَنِيهَا ولم تَرْقَعْ بذلكَ مَرْقَعا

وقال اللهَ تباركَ وتعالَى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[4] . وقالَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[5] . فأذِن في العفْوِ ولم يأذَنْ في الجَهْدِ ، وأذِنَ في الفُضُولِ ولم يأذَنْ في الأصولِ.

وأراد كعبُ بن مالِكٍ[6] أن يتصدَّقَ بمالِهِ . فقالَ له النبيُّ ﷺ : « أَمْسِكْ عليكَ مالَكَ »[7] . فالنبيُّ ﷺ يمنعُه منْ إخراجِ مالِهِ في الصدقةِ ، وأنتمُ تأمرونَهُ بإخراجِهِ في السَّرَفِ والتبذيرِ !

وخَرجَ غَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ منْ جميعِ مالِهِ ، فأكرههُ عمرُ علَى الرجوعِ فيهِ ، وقالَ : لو مُتَّ لرجمتُ قَبرَكَ ، كما يُرْجم قَبرُ أبي رِغالٍ .

وقال اللهَ جلَّ وعزَّ : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧] . وقال النبيُّ ﷺ : « يكفيكَ ما بَلَّغَكَ المحَلَّ » . وقالَ : ما قلَّ وكفَى، خيرٌ ممَّا كَثُر وألْهَى » . وقال اللهَ تباركَ وتعالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة . باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى [٣/ ٣٤٥] وفي مواضع أخرى . ومسلم في الأقضية . باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة [١٠ - ١٤] والدارمي وأحمد .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز . باب رثاءِ النبي (سعد بن خولة [٣/ ١٩٦] وفي مواضع أخرى . ومسلم في الوصية . باب الوصية بالثلث [٥ ، ٨] .

(٣) حسن . أخرجه أحمد في المسند [٢/ ١٦٠ ، ١٩٣ - ١٩٥] والحاكم في المستدرك [١/ ٤١٥] .

(٤) [الإسراء : ٢٦ - ٢٧] . (٥) [البقرة : ٢١٩] .

(٦) كعب بن مالك بن عمرو بن القين، الأنصاري السَّلَمي الخزرجي : صحابي . شهد أكثر الوقائع مع النبي ﷺ . من شعراء الإسلام وله ديوان شعر . مات وهو في السابعة والسبعين رضي الله عنه . الأعلام [٥/ ٢٢٨، ٢٢٩] .

(٧) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور . باب إذا أهدى ماله على وجه النذر والتوبة [١١/ ٥٨١] وفي مواضع أخرى .

[الفرقان : ٦٧] . وقال النبيُّ ﷺ : « إنَّ المُنبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ ، ولا ظَهْرًا أَبْقَى[١] . وقال اللهَ جلَّ ذِكْرُه : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] .

ولذلكَ قالُوا : خيرُ مالِكَ ما نَفَعَكَ ، وخيرُ الأمورِ أواسِطُها ، وشَرُّ السَّيْرِ الحَقْحَقَة[٢] ، والحسنةُ بينَ السيئتين . وقالُوا : دِينُ اللهِ بينَ المقصِّر والغالي. وقالُوا في المثلِ : بينهما يَرْمِي الرامِي . وقالُوا : عليكَ بالسَّدادِ والاقتصادِ ، ولا وَكْس[٣] ولا شَطَطَ . وقالُوا : بين المُمِخَّةِ[٤] والعَجْفَاء . وقالُوا : لا تكُنْ حُلْوًا فتُبتلعَ، ولا مُرًّا فتُلْفَظَ . وقالُوا في المثلِ : ليسَ الرِّيُّ عن التَّشَافِّ . وقالُوا : يا عاقدُ اذكرْ حلاًّ . وقالُوا : الرَّشْفُ أنقعُ للظمآنِ . وقالُوا : القليلُ الدائمُ أكثرُ من الكثيرِ المنقَطِعِ . وقالَ أبو الدَّرْدَاءِ : إنِّي لأَسْتَجِمُّ نفسِي ببعضِ الباطِلِ ، كراهةَ أنْ أَحمِلَ عليها مِن الحق مَا يَمِلُّها .

وقالَ الشاعِرُ :

وإنِّي لَحُلْوٌ تعتَرِينِي مرارةٌ وإنِّي لَصَعْبُ الرأسِ غيرُ جَموحِ

وقالُوا في عَذْلِ المُصْلِحِ ولائِمةِ المقتصدِ : الشَّحِيحُ أعذَرُ منَ الظالم . وقالُوا : ليسَ مِنَ العدْلِ سرعةُ العذْلِ . وقالُوا : لعلَّ له عذرًا وأنتَ تلُومُ. وقالُوا : ربَّ لائمٍ مُليمٌ . وقالَ الأحنفُ : ربَّ مَلُومٍ لا ذنبَ لهُ . وقالَ : إعطاءُ السائِلِ تَضْرِيَةٌ[٥] ، وإعطاءُ المُلْحِفِ مشاركَةٌ . وقالَ النبيُّ ﷺ : « لا تصلحُ المسألةُ إلاَّ في ثلاثٍ : فقرٍ مُدْقِعٍ ، وغُرْمٍ مُفْظِعٍ، ودمٍ مُوجِعٍ »[٦] .

وقالَ الشَّاعرُ :

الحُرُّ يُلْحَى والعصَا للعبدِ وليسَ للمُلْحِفِ غيرُ الردِّ[٧]

وقالُوا : إذَا جدَّ السؤالُ ، جدَّ المنعُ . وقالُوا : احذَرْ إعطاءَ المخدُوعينَ ، وبذْلَ المغبونِينَ ، فإنَّ المغبونَ لا محمودٌ ولا مأجورٌ . ولذلكَ قالُوا : لاَ تكنْ أدنَى العَيْرَيْنِ إلَى السَّهْمِ . (يقولُ : إذَا أعطيتَ السائلينَ مالكَ ، صارتْ مقاتِلُكَ أظهر لأعدائِكَ منْ مقاتِلِهم) . وقالُوا : الفِرارُ بِقِرابٍ أَكْيَسُ[٨]. وقالَ أبُو الأسودِ : ليسَ منَ العزِّ أنْ تتعرَّضَ للذلِّ ، ولاَ مِنَ الكرمِ أنْ تستدعِيَ اللؤمَ. ومَنْ أخرجَ مالَه منْ يدهِ افتقَر، ومنْ افتقرَ فلا بدَّ له من أنْ يضرَعَ، والضَّرَعُ لؤمٌ. وإنْ كانَ الجودُ شقيقَ الكرمِ ، فالأنفةُ أوْلَى بالكرمِ . وقدْ قالَ الأَوَّلُ : اللَّهم لا تُنزلْنِي ماءَ سَوْءٍ ، فأكونَ امرأَ سَوْءٍ.

وقدْ قالَ الشاعرُ :

---

(١) روايته : « إن هذا الدِّينَ متينٌ ، فأَوْغِلْ فيه برفق، فإن المُنبَتَّ لا أرضا قَطَع، ولا ظَهْرًا أبقى » ، وهو حديث ضعيف أخرجه السيوطي في الجامع الصغير [١/ ١٠٢] ، يريد أنه بقي في طريقه عاجزًا عن مقصده لم يَقْضِ وَطَره، وقد أغْطَب ظَهْرُه .

(٢) الحقحقة : أشد السير وأتعبه للدابة . (٣) الوكس : النقص . (٤) الممخة : السمينة .

(٥) تضرية : التضرية التعويد .

(٦) ضعيف . أخرجه ابن ماجة في التجارات . باب بيع المزايدة [٢١٩٨] وأحمد في المسند [٣/ ١١٤] .

(٧) في البيان والتبيين [٣/ ٣٧] لبشار بن برد .

(٨) أكيس : أعقل أي الذي يفر ومعه قراب سيفه أكيس ممن يفقدها .

واخـطُ مـعَ الـدهـرِ إذَا خَـطَـا واجْـرِ مـعَ الـدَّهْـرِ كـمَـا يَـجْـرِي

وقدْ قالَ الآخرُ :

يا ليتَ لِي نعليْنِ منْ جِلْدِ الضَّبُعْ وَشُـرُكًـا[1] مـنْ ثَـغْـرِهَـا لا تَـنْـقَـطِـعْ

كلُّ الحِذاءِ يحتذِي الحافِي الوَقِعْ[2]

وقدْ صَدَقَ قولُ القائلِ : منِ احتاجَ اغتفرَ، ومنِ اقتضَى تجوَّزَ. وقيلَ لرَيْسيمُوسَ[3]: تأكُلُ في السوقِ؟ قالَ : إنْ جاعَ (رَيْسيموسُ) في السُّوقِ ، أكلَ في السوقِ. وقالَ : منْ أجدبَ انتجعَ، ومنْ جاعَ جَشِعَ. وقالَ : احذَروا نِفارَ النعمةِ، فإنَّها نَوَارٌ[4]؛ وليسَ كلُّ شاردٍ بمردُودٍ، ولا كلُّ نادٍّ بمصروفٍ. وقالَ عليُّ بنُ أبِي طالبٍ: قلَّما أدْبَرَ شيءٌ فأقبلَ. وقالُوا: رُبَّ أكْلَةٍ تمنعُ أكَلاَتٍ، ورُبَّ عَجَلَةٍ تَهبُ رَيثًا[5]. وعابُوا منْ قالَ : أكْلَةٌ ومَوْتَةٌ. وقالُوا : لا تطلُبْ أثرًا بعدَ عَيْنٍ. وقالُوا : لا تكُن كمنْ تغلِبُه نفسُهُ علَى ما يَظُنُّ، ولا يغلِبُها علَى ما يَستيقِنُ. فانظرْ كيفَ تُخْرِجُ الدِّرْهَم؟ ولِمَ تُخْرِجُهُ؟ . وقالُوا : شَرٌّ منَ المَرْبِئَةِ سُوءُ الخَلَف.

وقالَ الشاعرُ :

إنْ يـكـنْ مـا بـهِ أُصِـبْـتَ جَـلِـيـلًا فـذَهـابُ الـعَـزَاءِ فـيـهِ أجَـلُّ[6]

وَلأَنْ تفتقرَ بجائحةٍ نازلةٍ ، خيرٌ لكَ منْ أنْ تفتقرَ بجنايةٍ مُكْتَسَبةٍ. ومَنْ كانَ سببًا لذهابِ وَفْرِه، لم تعدَمْه الحسرةُ منْ نفسِهِ ، واللائمةُ منْ غيره، وقلَّةُ الرحمةِ، وكثرةُ الشماتَةِ ، معَ الإثمِ المُوبِقِ، والهوانِ علَى الصاحبِ. وذَكَرَ عمرُ بنُ الخطَّابِ فِتيَانَ قريشٍ، وسَرَفَهم في الإنفاق، ومسابَقَتَهم في التَّبذيرِ، فقالَ : لَخُرْقَةُ أحدِهِم أشدُّ عليَّ منْ عَيْلَته. (يقولُ : إنَّ إغناءَ الفقيرِ، أهْوَنُ عليَّ منْ إصلاحِ الفاسدِ) .

ولا تَكُنْ علَى نفسكَ أشْأَمَ منْ خَوْتَعَةَ ، وعلَى أهلِكَ أشأَمَ منَ البَسُوسِ[7]، وعلَى قومِكَ أشأمَ منْ عِطْرِ مَنْشِمِ[8]. ومَنْ سَلَّطَ الشهواتِ على مالِهِ ، وحَكَّم الهوَى في ذاتِ يدِهِ ، فبقي حَسِيرًا، فلاَ يلومَنَّ إلاَّ نفسَه . وطُوبَى لكَ يومَ تقدِرُ علَى قديمٍ تنتفعُ بهِ .

وقالَ بعضُ الشعراءِ :

أرَى كـلَّ قـومٍ يـمـنـعـونَ حَـرِيـمَـهُـمْ ولـيـس لأصـحـابِ الـنَّـبِـيـذِ حَـرِيـمُ

أخـوهُـمْ إذَا مـا دارتِ الـكـأسُ بـيـنَـهـمْ وكُـلُّـهُـمُ رَثُّ الـوِصـالِ سـؤُمُ

---

(١) شُرُكًا : جمع شِراك ، وهو سير النعل .

(٢) الرجز لأبي المقدام ، واسمه جساس بن قطب ، اللسان (وقع) ، وغير منسوب في البيان والتبيين [٣/ ١٠٨، ١٠٩] .

(٣) ريسموس : يوناني له نوادر عجيبة .

(٤) نوار : المرأة النفور من الريبة . (٥) الريث : البطء .

(٦) البيت لصالح بن عبد القدوس في البيان والتبيين [٢/ ٧٤، ١٤٠] وغير منسوب في عيون الأخبار [٣/ ٦١] .

(٧) هي بسوس بنت منقذ التميمية سميت حرب البسوس بين بكر وتغلب باسمها لأنها قامت من أجلها .

(٨) امرأة كانت تبيع العطر تطيبوا بطيبها فهزموا فقالوا - أشأم من عطر منشم - فصارت مثلاً .

فهذا بيانِي، لم أقُلْ بِجَهالةٍ ولكنّى بالفاسقينَ عَليمُ

وقدْ كانَ هذَا المعنَى في أصحابِ النبيذِ أوْجَدَ . فأمَّا اليومَ فقد استوَى الناسُ .

قال الأضبطُ بنُ قُرَيْعٍ ، لمَّا انتقلَ في القبائلِ فأساءُوا جِوارَه، بعدَ أن تأذَّى بيني سَعْدٍ: بكلٍّ وإِ بنو سعدٍ .

خذْ بقولِي، ودَعْ قولَ أبِي العاصِ . وخذْ بقولِ منْ قالَ : عشٍّ ولا تَغْتَرّ ؛ وبقولِ منْ قالَ : لا تَطْلُبْ أثرًا بعدَ عَيْنٍ ؛ وبقولِ منْ قالَ : املأْ حُبَّكَ مِنْ أوّلِ مَطْرَةٍ، ودَعْ ما يَرِيبكَ إلى ما لا يَرِيبكَ. أخوكَ مَنْ صَدَقك، ومنْ أتاكَ منْ جهةِ عقلِكَ ، ولم يأتِكَ منْ جهةِ شهوتِكَ . وأخُوكَ من احتملَ ثِقَل نصيحَتِكَ فِي حظِّكَ ، ولمْ تأمنْ لائمتَه إيَّاك في غدِكَ .

وقالَ الآخرُ :

إنّ أخاكَ الصِدْقَ منْ لَنْ يَخْدَعَكْ ومَنْ يَضِيرُ نفسَهُ لينفعَكْ[1]

وقال عَبِيدُ الأبْرَصِ :

واعْلَمَنْ عِلْمًا يَقينًا أنَّهُ ليسَ يُرْجَى لكَ مَن ليسَ مَعَكْ[2]

ولاَ تزالُ بخيرٍ ما كانَ لكَ واعظٌ منْ نفسِكَ ، وعينٌ منْ عقلِكَ على طباعِكَ؛ أَوْ ما كان لكَ أخٌ نصيحٌ ، ووزيرٌ شفيقٌ . والزوجةُ الصالحةُ عَوْنُ صِدْقٍ . والسعيدُ منْ وُعِظَ بغيرِه . فإنْ أنتَ لم تُرْزَقْ منْ هذِهِ الخِصالِ خَصْلَةً واحدةً ، فلا بُدَّ لكَ منْ نكبةٍ مُوجِعةٍ، يبقَى أثرُهَا ، ويلُوحُ لكَ ذِكْرُها. ولذلكَ قالُوا : خيرُ مالِكَ ما نَفَعكَ. ولذلكَ قالُوا : لم يذهبْ منْ مالِكَ ما وعظكَ .

إنَّ المالَ محروصٌ عليهِ ، ومطلوبٌ في قَعْرِ البحارِ ، وفي رءوسِ الجبالِ ، وفي دَغَل الغِياضِ[3]؛ ومطلوبٌ في الوُعورةِ، كما يُطلَبُ في السُّهولةِ. وسواء فيهَا بطونُ الأوديةِ ، وظهورُ الطُّرُقِ ، ومشارقُ الأرضِ ومغاربُها . فطُلِبَتْ بالعزِّ ، وطُلِبَتْ بالذُّلِّ، وطُلِبَتْ بالوفاءِ ، وطُلِبَتْ بالغَدرِ؛ وطُلِبَتْ بالنُّسُكِ، كما طُلِبَتْ بالفتكِ، وطُلِبَتْ بالصدقِ، كما طُلِبَتْ بالكذبِ؛ وطُلِبَتْ بالبَذَاء. وطُلِبَتْ بالمَلَقِ - فلم تُتْرَكْ فيها حيلةٌ ولا رُقْيةٌ ؛ حتَّى طُلِبَتْ بالكفرِ باللهِ، كمَا طُلِبَتْ بالإيمانِ . وطُلِبَتْ بالسُّخْفِ، كما طُلِبَتْ بالنُّبْلِ. فَقَدْ نصبُوا الفِخاخَ بكلِّ موضعٍ ، ونصبُوا الشَّرَكَ بكلِّ رَبْعٍ. وقدْ طلبَكَ منْ لا يُقَصِّرُ دونَ الظَّفَرِ. وحَسدَكَ منْ لا ينامُ دونَ الشِّفاءِ.

وقد يهدَأُ الطالبُ الطوائلِ ، والمطلوبُ بذاتِ نفسِهِ ، ولا يهدأُ الحريصُ . يقال إنَّه ليسَ في الأرضِ بلدةٌ واسِطةٌ، ولا باديةٌ شاسِعةٌ ، ولا طَرَفٌ منَ الأطرافِ ، إلاَّ وأنتَ واجدٌ بهَا المَدِينيَّ

---

(١) عيون الأخبار [٣/٧] برواية :

إن أخاكَ الصِّدقَ مَن لن يدعكْ ومن يَضُرُّ نفسه لينفعكْ

(٢) ديوانه [٩١] . (٣) دغل الغياض : الدغل الشجر الكثير الملتف والغياض الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

والبَصْريِّ والحيريِّ . وقدْ ترَى شَنَفَ[1] الفقراءِ للأغنياءِ، وتسرُّعَ الرغبةِ إلى الملوكِ، وبُغْضَ الماشِي للراكبِ ، وعمومَ الحسَدِ في المتفاوتيْن .

وإنْ لم تستعملْ الحذَرَ ، وتأخذْ بنصيبِكَ منَ المُدَاراةِ، وتتعلَّم الحزمَ ، وتجالسَ أصحابَ الاقتصادِ، وتعرفْ الدهورَ - ودهرَك خاصَّةً-، وتُمَثِّلْ لنفسِك الغِيَرَ، حتَّى تتوهَّم نفسَك فقيرًا ضائعًا، وحتَّى تتهِمَ شِمالَك علَى يمينِك، وسمعَك علَى بصرِك، ولا يكونَ أحدٌ أتْهَمَ عندَ نفسِكَ منْ ثِقَتِك، ولا أوْلى بأخْذِ الحذرِ منهُ منْ أمِينكَ - اخْتُطِفْتَ اخْتِطَافًا، واستُلِبْتَ استلابًا، وذَوَّبُوا مالكَ وتحيَّفوه[2] ، وألزمُوه السُّلَّ ولم يُداوُوهُ. وقدْ قالُوا : يلِي المالَ ربُّه، وإنْ كانَ أحمقَ. فلا تكونَنَّ دونَ ذَلِكَ الأَحمقِ. وقالُوا : لا تعدَم صَنَاعٌ ثَلَّةً. فلَا تكونَنَّ دونَ تلكَ الصَّناع. وقدْ قالَ الأوَّلُ في المالِ المضيَّع المسلَّطِ عليه شهواتُ العيالِ: ليسَ لهَا راعٍ، ولكِنْ حَلَبَةٌ .

وليسَ مالُك المالَ المُعْفَى منَ الأضراسِ، فيقالَ فيهِ : مرعًى ولا أَكُولة، وعُشْبٌ ولا بِعَير. فقُصارَاك معَ الإصلاحِ أن يقومَ ببطنِك وبحوائجكَ وبما ينوبُكَ . ولاَ بقاءَ للمالِ على قِلةِ الرَّعْيِ ، وكثرةِ الحَلْبِ .

فَكِسْ في أَمرِكَ ، وتقدَّم في حفظِ مالِك ؛ فإنَّ منْ حفِظَ مالَه فقد حفظَ الأكْرَمَيْن. والأكرمَانِ : الدِّينُ والعِرْض. وقدْ قيلَ : للرمْيِ يُراشُ السهمُ ، وعندَ النِّطاحِ تَغْلِبُ القَرْناءُ .

وإذَا رأَتِ العربُ مستأكِلًا وافقَ غُمْرًا قالتْ : ليسَ عليكَ نَشجُه، فاسحَبْ وخَرِّق. وقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « الناسُ كلُّهم سواءٌ كأسْنَانِ المُشْطِ، والمرءُ كثِيرٌ بأخيه »[3] . ولا خيرَ لكَ في صُحبةِ منْ لا يرَى لكَ مثلَ ما يرَى لنفسِه. فتعرَّفْ شأنَ أصْحابِك، ومَعْنَى جلسائِكَ . فإنْ كَانُوا في هذهِ الصفةِ فاستعمِلْ الحزمَ، وإنْ كانُوا في خِلافِ ذلكَ عمِلْتَ على حَسَبِ ذلِكَ .

إنِّي لستُ آمُرُك إلاَّ بما أَمَرَك به القرآنُ . ولستُ أوصِيكَ إلاَّ بما أوصاكَ به الرسولُ. ولا أَعِظُكَ إلاَّ بما وَعَظَ به الصالحونَ بعضُهُم بعضًا . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اعْقِلها وتوكَّلْ »[4] . وقالَ مُطَرِّفُ بنُ الشخِّيرِ : منْ نامَ تحتَ صَدَفٍ مائلٍ ، وهُو ينوِي التوكُّلَ، فليرمِ بنفسِه منْ طَمارٍ، وهُو ينوِي التوكّلَ! فأينَ التوقِّي الذِي أمر الله به؟ وأيْنَ التغريرُ الذِي نهى عنْه؟ ومنْ طمِعَ في السلامةِ منْ غيرِ تسلُّمٍ ، فقدْ وضعَ الطمعَ في موضعِ الأمانيِّ. وإنَّما يُنجِزُ اللهَ الطمعَ، إذَا كانَ فيما أمرَ به ، وإنَّما يحقِّق منَ الأملِ، ما كانَ هو المسبِّبَ له.

وفَرَّ عُمَرُ منَ الطاعونِ ، فقالَ له أبو عُبَيْدة : أتفِرُّ من قَدَرِ اللهِ؟ قالَ : نعمْ ، إلى قَدَرِ اللهِ. وقيلَ لهُ :

---

(١) شَنَفَ : شنف إليه رماه بنظرة فيها استنكار وكره . (٢) تحيفوه : تنقصوه .

(٣) ضعيف جدًا . أخرجه ابن عدي [١٥٣/ ٢] ، وابن الجوزي في الموضوعات [٣/ ٨٠] .

(٤) حسن . أخرجه الترمذي في صفة القيامة . باب ما جاء في صفة أواني الحوض [٢٥١٧] .

هل ينفعُ الحَذَرُ من القَدَرِ؟ فقالَ : لو كانَ الحذرُ لا ينفعُ ، لكانَ الأمرُ به لَغْوًا .

فإبْلاءُ العُذْرِ هو التوكّل. وقالَ رسول اللهِ ﷺ لرجلٍ قالَ في خصُومةٍ : « حَسْبِيَ اللهُ : أَبْلِ اللهَ عُذْرًا[1] ، فإذَا أعْجزَكَ أمرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللهُ » .

وقالَ الشاعرُ :

ومَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ ومُقْتِرًا ... منَ المالِ يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ
ليُبْلِيَ عُذْرًا أو ليَبْلُغَ حاجةً ... ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ[2] .

وقالَ الآخرُ :

فإنْ يكنُ القاضِي قضَى غيرَ عادلٍ ... فبعدَ أمورٍ لا ألومُ لها نَفْسِي

وقال زُهير البابيُّ : إنْ كانَ التوكُّلُ أنْ أكونَ متَى أخرجتُ مالي أيقنْتُ بالخَلَفِ، وجعلتُ الخَلَفَ مالًا يرجِعُ في كيسِي، ومتَى ما لم أحْفَظْه أيقنتُ بأنَّه محفوظٌ ، فإنِّي أشْهِدُكُم إنِّي لم أتوكَّلْ قطُّ. إنَّما التوكُّل أن تعلَم أنَّك متَى أخذتَ بأدَبِ اللهِ أنَّك تتقلَّبُ في الخيرِ ، فتُجزَى بذلكَ إمَّا عاجلًا وإمَّا آجلًا - ثم قالَ : فلِمَ تَجَرَ أبو بكْرٍ؟ ولِمَ تَجَرَ عُمر؟ ولِمَ تَجَرَ عثمانُ؟ ولِمَ تَجَرَ الزُّبَيْرُ؟ ولِمَ تَجَرَ عبدُ الرحمَنِ؟ ولِمَ علَّم عُمَرُ الناسَ يتْجُرونَ، وكيف يشترون ويبيعونَ؟ ولِمَ قالَ عُمرُ : إذا اشتريتَ جَمَلًا فاجعله ضخمًا، فإنْ لم يَبِعْه الخُبْرُ باعَه المنظَر؟ ولِمَ قال عُمرُ : فرِّقوا بينَ المنايَا ، واجعلُوا الرأسَ رأسينِ. ولِمَ قالَ عثمانُ حينَ سُئِلَ عنْ كثرةِ أرباحِه ، قالَ : لم أروَ منْ ربحٍ قطُّ . ولِمَ قيلَ : لا تشترِ عيبًا ولا شيبًا؟ وهلْ حجَر عليٌّ بنُ أبي طالبٍ علَى ابنِ أخيهِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ إلاَّ في إخراجِ المالِ في غيرِ حقِّه، وإعطائِه في هَواه؟. وهلْ كانَ ذلكَ إلاَّ في طلبِ الذِّكْرِ والتماسِ الشكرِ؟ وهل قالَ أحدٌ : إنَّ إنفاقَه كانَ في الخمورِ والقِمارِ ، وفي الفُسولة[3] والفجورِ؟ وهل كانَ إلاَّ فيما تسمونَه جودًا ، وتعُدُّونه كرمًا؟ ومَنْ رأى أن يحجُرَ على الكرامِ لكرمِهم، رأىَ أن يحجُرَ على الحُلماءِ لحِلمِهم. وأيُّ إمامٍ بعدَ أبي بكر تريدونَ ؟ وبأيِّ سَلَفٍ بعد عليٍّ تقْتَدُونَ؟.

وكيفَ نرجُو الوفاءَ، والقيامَ بالحقِّ، والصبرَ على النائبةِ، منْ عندِ لُعْمُوظٍ[4] مُستَأْكِلٍ، ومَلاَّق مُخادعٍ، ومَنْهُومٍ بالطعامِ شَرِهٍ، لا يبالِي بأيِّ شيءٍ أَخَذَ الدِّرهمَ؟ ومن أيِّ وجهٍ أصابَ الدينارَ؟ ولا يكترثُ للمِنَّة، ولا يُبالِي أن يكونَ أبدًا منهومًا ، منعومًا عليهِ؛ وليسَ يُبالِي - إذَا أكلَ - كيفَ كانَ

---

(١) أَبْلِ اللهَ عُذْرًا ، أي : أعْطِه وأبْلِغ العُذْرَ إليه .

(٢) في عيون الأخبار [١/ ٣٤٣] عزاهما لأوس بن حجر ، وليسا في ديوانه ، وفيه أيضاً [٢/ ٢١١] عزى البيت الثاني لعروة بن الورد . والبيتان في ديوان عروة [٢٣] ط . دار صادر . ورواية الثاني فيه :

ليَبْلُغَ عُذرًا أو يُصيبَ رَغيبةً ... ومَبْلَغُ نفسٍ عُذْرَها مثلُ مَنْجَحِ

(٣) الفسولة : الدناءة .

(٤) اللعموظ : الحريص الشهوان للطعام ، وقد سبق تفسيره .

ذلكَ الطعام؟ وكيفَ كانَ سببُهُ؟ وما حكمُه؟

فإنْ كانَ مالُكَ قليلًا، فإنَّما هُو قِوامُ عِيالِك، وإنْ كانَ كثيرًا فاجعلْ الفاضلَ لعُدَّةِ نوائبِكَ. (ولا يأمنُ الأيامَ إلاَّ المضلَّلُ)، ولا يغترُّ بالسلامةِ إلاَّ المغفَّلُ. فاحْذَر طوارقَ البَلاءِ، وخُدَعَ رجالِ الدَّهاء. سَمنُك في أديمكَ، وغَثُّك خيرٌ منْ سمينِ غيركَ، لو وجَدْتَه، فكيفَ ودونَه أسَلٌّ حِدَادٌ[1]، وأبوابٌ شِدادٌ؟ قالتِ امرأةٌ لبعضِ العربِ: إنْ تزوجتَني كفيتُك. فأنشأَ يقولُ:

إذَا لمْ يكنْ لِي غيرُ مالِكِ، مسَّنى ... خَصَاصٌ، وبانَ الحمدُ مِنِّىَ والأجرُ
وما خيرُ مالٍ ليسَ نافعَ أهلِهِ ... وليسَ لشيخِ الحيِّ في أمرِهِ أمرُ

وقال المَعْلُوطُ القُرَيْعِيّ:

أبَا هانئٍ لا تسألِ الناسَ والْتَمِسْ ... بِكَفَّيْكَ سَتْرَ اللهِ فاللهُ واسعُ
فلو تسألُ الناسَ الترابَ لأَوْشَكُوا ... إذَا قلتَ: هاتُوا، أن يَملُّوا فَيَمْنَعُوا[2]

(عَودٌ إلَى البخلاءِ ومَعَ أخَوين)

ثُم رجعَ الحديثُ إلَى أحاديثِ البخلاءِ، وإلَى طُرَفِ معانِيهم وكلامِهم.

قال ابنُ حسَّان: كانَ عندنَا رجلٌ مُقِلٌّ، وكانَ لهُ أخٌ مُكْثِرٌ. وكانَ مُفْرِطَ البخلِ، شديدَ التَّفْجِ[3]. فقالَ له يومًا أخُوه: وَيْحكَ! أنَا فقيرٌ مُعْيِلٌ[4]، وأنتَ غنيٌّ خَفيفُ الظَّهْرِ، لا تُعينُني علَى الزمانِ، ولا تُواسِيني ببعضِ مالِكَ، ولاَ تتفرّجُ لي عنْ شيءٍ! واللهِ ما رأيتُ قطُّ ولا سمِعتُ أبخَلَ منكَ! قالَ: ويْحَكَ! ليسَ الأمرُ كما تظنُّ، ولا المالُ كما تحسُبُ، ولا أنَا كما تقولُ في البخلِ ولا في اليُسْر. واللهِ لو ملكتُ ألفَ ألفِ دِرهم، لوهبتُ لكَ خَمْسَمائةِ ألفِ دِرهم. يا هؤلاءِ، فرجلٌ يهَبُ في ضربةٍ واحدةٍ خَمْسَمائةِ ألفِ دِرهم، يُقالُ لهُ: بخيلٌ!

(مع صاحب الثريدة البلقاء)

وأمَّا صاحبُ الثَّريدَةِ البلقاءِ[5]، فليسَ عَجَبِي منْ بُلْقَةِ ثريدَته، وسائرِ ما كان يظهرُ علَى خِوانِه، كعجَبِي منْ شيءٍ واحدٍ، وكيفَ ضَبَطهُ وحَصَرهُ وقَوِيَ عليهِ، معَ كثرةِ أحاديثِهِ، لم أرهُ خَبَّرَ أنَّ رجلًا وهبَ لرجلٍ درهمًا واحدًا! فقدْ كانَ يُفَنَّنُ في الحزمِ والعزمِ، وفي الحلمِ والعلمِ، وفي جميعِ المعاني، إلاَّ ذِكْرَ الجودِ؛ فإنِّي لمْ أسمعْ هذَا الاسمَ منهُ قطُّ: خَرَجَ هذا البابُ من لسانِهِ، كما خَرَجَ

(١) أسل حداد: رماح قواطع.
(٢) في عيون الأخبار [٣/ ٢١٠] غير منسوبين.
(٣) النفج: الافتخار بما ليس عندك، وقد سبق تفسيره. (٤) معيل: كثير العيال.
(٥) بلقاء: فيها بياض وسواد، أو بياض وحمرة والظاهر أن هذا من قلة دسمها ورداءة المرق الذي شربته مع قلته.

من قلبِهِ!

ويؤكِّدُ ما قلتُ ما حدَّثني بهِ طاهرٌ الأسيرُ، فإنَّه قالَ : وممَّا يدلُّ على أنَّ الرومَ أبخلُ الأُمم، أنَّك لا تجدُ للجودِ في لغتِهم اسمًا. (يقولُ: إنَّما يُسَمِّى الناسُ ما يحتاجُونَ إلَى استعمالِه. ومعَ الاستغناءِ يسقُط التكلُّفُ) .

وقدْ زعمَ ناسٌ أَنَّ ممَّا يدلُّ علَى غشِّ الفُرْسِ، أنَّه ليسَ للنصيحةِ في لغتِهم اسمٌ واحدٌ يجمعُ المعانيَ الَّتي يقعُ عليهَا هذَا الاسمُ. وقولُ القائِلِ: نَصيحةٌ، ليسَ يُرادُ بهِ سلامةُ القلبِ؛ فقدْ يكونُ أن يكُونَ الرجلُ سليمَ الصدرِ، ولم يحدُثْ سببٌ منْ أجلِهِ يقصِدُ إلَى المَشُورةِ عليكَ بالذي هُو أردُّ عليكَ - على حَسَب رأيه فيكَ - وجهًا لنفعِك . ففي لغتِهم اسمٌ للسلامةِ، واسمٌ لإرادةِ الخيرِ، وحسنِ المشورةِ، وحملِكَ بالرأيِ على الصوابِ. فللنَّصيحةِ عندهُم أسماءٌ مختلفةٌ، إذَا اجتمعت دلَّتْ على ما يدلُّ عليهِ الاسمُ الواحدُ في لغةِ العربِ. فمنْ قضَى عليهم بالغشِّ منْ هذَا الوجهِ فقدْ ظلمَ.

(معَ راشدِ الأعورِ)

وحدَّثني إبراهيم بنُ عبدِ العزيز قالَ : تغدّيتُ معَ راشدِ الأعورِ، فأَتَوْنا بجام فيه بِيَاحٌ سَبَخِيٌّ[1]، (الذي يقالُ له الدُّرَّاج) . فجعلتُ آخذُ الواحدةَ فأقطعُ رأسَها ثُم أعزِلُه، ثم أُشقُّها باثْنَيْنِ منْ قِبَلِ بطنِها، فآخذُ شوكةَ الصُّلْبِ والأضلاعَ فأَعزِلُها، وأرمِي بمَا في بطنِها، وبطَرفِ الذنَبِ والجَنَاحِ. ثم أجمعُها في لُقْمةٍ واحدةٍ وآكلُها.

وكانَ راشدٌ يأخذُ البَيَّاحةَ، فيقطعُها قطعتينِ، فيجعلُ قطعةً في لُقْمةٍ، لا يُلْقِي رأسًا ولا ذَنبًا- فصبرَ لِي عَلى لُقَمٍ عِدّةٍ. فلمَّا بلغتُ المجهودَ منهُ قالَ : أيْ بُنَيَّ ، إذَا أكلتَ الطعامَ فكلْ خَيْرَه بشرِّه!

قالَ : وكانَ يقولُ : لم أنتفعْ بأكلِ التمرِ إلاَّ مع الزَّنْجِ وأهلِ أَصْبَهَان. فأمَّا الزَّنْجِيُّ فإنَّه لا يتخيَّرُ، وأنا أَتَخَيَّرُ. وأمَّا الأصبهَانيُّ فإنَّه يقبِضُ القَبْضَةَ، ولا يأكلُ منْ غيرِها، ولا ينظرُ إلى ما بينَ يديهِ، حتى يفرُغَ من القَبْضةِ. وهذَا عدلٌ. والتخيُّر قِرْفَةٌ[2] وجَوْرٌ. لا جَرَم أنَّ الذِي يبقَى منَ التمرِ لا يَنْتفعُ به العِيالُ، إذَا كانَ قدَّامَ مَنْ يتخيَّرُ.

وكانَ يقولُ : ليسَ منَ الأدبِ أنْ تجولَ يَدُك في الطَّبَقِ، وإنَّما هو تَمْرٌ وما أصابَ[3].

---

(١) البياح السبخي : نوع من السمك يعيش في ماء السبخة . (٢) قرفة : تهمة .

(٣) وما أصاب : أي واليد التي أصابته يعني : أن اليد إذا وقعت على تمرة أخذتها من غير اختيار .